جامعة الانبار

كلية العلوم الاسلامية

قسم التفسير وعلوم القران

علوم القران وتاريخه عند المستشرقين

المرحلة الرابعة/ الفصل الثاني

اعداد اللجنة العلمية في قسم التفسير وعلوم القران

٢٠٢٥ هـ - ١٤٤٦م

المحاضرة الأولى : الاستشراق ونشأته

أ ـ تعريفه :كلمة الاستشراق لفظة مولدة من لفظ (استشرق) المأخوذ من مادة «شرق» أي مستشرق.

استعملها المحدثون ترجمة لكلمة (Orientalism) التي تدل على معنى (مستشرقون) ، أما المحققون فيستعملون بدلا منها (علماء المشرقيات) ولكن كلمة (مستشرقون) أكثر شيوعا خاصة في الآونة الأخيرة.

فالمستشرق هو : عالم غربي اهتم بالدراسات الشرقية عقدية كانت أو تاريخية أو أدبية أو حضارية .

والاستشراق بتعبير موجز : دراسة يقوم بها الغربيّون لتراث الشرق وبخاصة كل ما يتعلق بتأريخه ، ولغاته ، وآدابه ، وفنونه ، وعلومه ، وتقاليده وعاداته.

كان أول ظهور لكلمة «مستشرق» في اللغة الإنجليزية سنة ١٧٧٩ م كما دخلت في معجم الأكاديمية الفرنسية سنة ١٨٣٨ م.

ب ـ نشأة الاستشراق :

اختلف المفكرون كثيرا في بداية حركة الاستشراق على أقوال عدة وإن كان قول من أرجعه للقرن السادس عشر الميلادي أكثر وضوحا ولا يمنع أن يكون هناك محاولات غير منظمة ظهرت قبل هذا التاريخ من القرن العاشر الميلادي منذ أن عم الإسلام بلاد الأندلس ، وانهزمت أمامه جيوش الغرب العسكرية وبأن عوار تأخره ثقافيا وحضاريا ، فما كان منه إلا أن وجه كل اهتمامه للتعرف على هذه القوة التي قهرته وتغلغلت في أرضه حتى دكت أبواب دوله وعواصمه. فأرسل طلابه ينهلون من العلوم الإسلامية في معاقل العلم في ديار الإسلام ، فترجموا كثيرا من كتبه وعلى رأس ذلك القرآن الكريم للتعرف على هذا الدين العظيم كما طلبوا مدرسين يعلمونهم في مراكز العلم عندهم إلى غير ذلك من الأمور التي تدل على اهتمامهم بالشرق الإسلامي من وقت مبكر.

فمن هذه البعثات الدراسية التي جاءت تنهل العلم من ديار الإسلام.

١ ـ البعثة الفرنسية برئاسة الأميرة «إليزابيث» ابنة خالة «لويس السادس» ملك فرنسا.

٢ ـ البعثة الإنجليزية برئاسة الأميرة (دوبان) ابنة الأمير جورج صاحب مقاطعة (ويلز).

٣ ـ البعثة الأسبانية التي كانت سنة ١٢٩٣ م والتي بلغ تعداد طلابها (٧٠٠) طالب وطالبة [١] وكان من بين هؤلاء الطلاب بعض الرهبان فرجع هؤلاء لبلادهم يحملون علوم الشرق الإسلامي الباهرة.

وكان من بين الدعاة المتحمسين الذين طالبوا بضرورة تعلم لغات الشرق لغرض التنصير «روجر بيكون» (١٢١٤ ـ ١٢٩٤ م) و «رايموندلول» (١٢٣٥ ـ ١٣١٦ م) وكان لهذين المستشرقين الأثر

الكبير في إنشاء كراسي تدريس اللغة العربية في الجامعات الغربية على أثر قرارات مجمع (فينا) الكنسي في عام ١٣١٢ م الذي وافق على أفكارهما واقتراحاتهما بذلك فأنشأ خمسة كراسي جامعية في خمس جامعات غربية لتعليم اللغة العربية منها : باريس ، اكسفورد ، بولونيا ، سلمنكا .

والعوامل التي كونت نشأة الاستشراق متعددة : دينية ، وسياسية ، واقتصادية ، وعلمية ، وغير ذلك.

فالعامل الديني واضح لا غموض فيه وهو يهدف إلى نشر الديانة المسيحية وتبليغ دعوتها ، وتصوير الإسلام تصويرا يثبت فضل المسيحية ورجحانها عليه ، ويبعث في الطبقة المثقفة إعجابا بالمسيحية وحرصا عليها ويحول بين أفرادهم والدخول في الإسلام ، لذا ركزوا على إثارة الشبهات والأباطيل حول القرآن خاصة والإسلام عامة لهذا الغرض نفسه. ولذلك نرى أن «الاستشراق والتبشير» يسيران في أغلب الأحوال معا. وأن عدد المستشرقين الأكبر أساقفة ، وعددا منهم يهود ديانة وجنسا.

أما العامل السياسي فواضح كذلك فقد كان المستشرقون روادا لدولهم الغربية في الشرق ، ومن واجبهم أن يمدوها بمددهم العلمي ليتعرف الغرب ـ عن قرب ـ على الشرق في كل شئون حياته ، ويتسنى له أن يبسط نفوذه وسلطته على الشرق وأن يحسن التعامل مع أهله ، ويتسنى له قيادهم والتحكم فيهم.

أما العامل الاقتصادي فكثير من المثقفين اتخذ الاستشراق تجارة رابحة ، ومهنة ناجحة. فشجعوا نشر الكتب التي تدور حول الإسلام والعلوم الشرقية ، وأشرفوا على نشرها لما يرون لها من سوق نافقة في أوربا وآسيا وغيرهما من بلاد العالم اليوم.

وأما العامل العلمي المحض فهو محدود وقد كان من عدد قليل من المثقفين الذين اهتموا بالدراسات الشرقية لشغفهم العلمي.

هذه العوامل وغيرها كانت من الأسباب الرئيسية في نشأة الاستشراق ودفع عجلته للأمام وكان من أوائل من اهتم بالدراسات الاستشراقية الراهب الفرنسي «جوبرت» الذي انتخب بابا لكنيسة روما عام (٩٩٩ م) بعد تعلمه في مدارس الأندلس وعودته إلى بلاده ، و «الراهب بطرس» المحترم (١٠٩٢ ـ ١١٥٦ م) ، والراهب «جيراردي كريمون» (١١١٤ ـ ١١٨٧ م) وفردريك الثاني ملك صقلية سنة (١٢٥٠ م) ، و «الفونس» ملك قشتالة ، و «جوبرت» الراهب الفرنسي ، وغيرهم.

وعند ما عاد هؤلاء الرهبان من الأندلس إلى بلادهم نشروا ثقافة المسلمين وعلومهم ومؤلفات أشهر علمائهم في تلك البلاد ، وأخذوا يدرسونها في معاهدهم آنذاك. وقد استمروا بالاعتماد على هذه

الكتب قرابة ستة قرون. ولما جاء القرن الثامن عشر العصر الذي بدأ فيه الغرب في استعمار العالم الإسلامي والاستيلاء على ممتلكاته نبغ عدد من علماء الغرب في الاستشراق نبوغا ملحوظا.

وفي الربع الأخير من القرن التاسع عشر عقد أول مؤتمر للمستشرقين في باريس عام (١٨٧٣ م) وتتالى عقد المؤتمرات التي تلقى فيها الدراسات عن الشرق وأديانه وحضاراته حتى يومنا هذا.

فبناء على ما تقدم تكون بداية الاستشراق بشكل واضح منذ أن دقت جيوش الفتح الإسلامي أبواب أوربا وعواصمها ؛ مما دفع أوربا الغارقة في الجهل والتخلف الحضاري يومئذ للبحث عن أسباب نهضة المسلمين ، وعن سبب بلوغهم هذا المجد العظيم الذي بلغوه ؛ لذا درسوا علوم هؤلاء الفاتحين لعلهم يوقفون مدهم وزحفهم عن بلادهم ، ولعلهم يكتسبون منهم ما ينفعهم في إنقاذهم من تخلفهم الحضاري ، لذا كان الاستشراق هو باب الأمل المنشود لهم.

ولما انتهت الحروب الصليبية بالهزيمة الساحقة لجيوش الغرب النصراني ، وضعت الخطة لغزو المسلمين بوسائل أخرى غير الحرب بالأسلحة المادية واقتضت خطة الغزو الجديد التوسع في الدراسات الاستشراقية ؛ لتكون تمهيدا للغزو الفكري الرهيب وإعدادا لشروطه الفكرية والنفسية. وانطلق المهتمون بالدراسات الشرقية يعملون لهذا الهدف فأخذوا يترجمون إلى لغاتهم كثيرا من كتب المسلمين ويعملون عليها الدراسات المتعددة فيضعونها بين أيدي ساسة الغرب ليتسنى لهم إخضاع الشرق لهم فكريا ، وتوجيهه سياسيا حسب خططهم المرسومة.

من هنا زاد اهتمام هؤلاء الساسة لحركة الاستشراق وتوجيهها ودعمها لدراسة الشرق من جوانب متعددة : لغوية ، ودينية ، واجتماعية ، وتاريخية ، وسياسية ، وغير ذلك. وقد كان كثير من هؤلاء المستشرقين من منسوبي الكنيسة. لذا التقت في الاستشراق أهداف جمعيات التبشير وأهداف الدوائر الاستعمارية ، ثم توسعت الحركة الاستشراقية ونمت بشكل كبير خاصة عند ما انتقلت إلى مقاعد الدراسة ومراكز العلم حيث أسست للاستشراق معاهد ومقاعد جامعية ، وتألفت له جمعيات تهتم به وبدراساته وتنشر هذه الدراسات في صحف ومجلات لها اهتمام بهذا الجانب ومن دراساتهم التي نشرت بعض المخطوطات العربية ووضع الفهارس الشاملة لبعض الكتب الإسلامية ووضع بعض المعاجم المفهرسة (كالمعجم المفهرس لألفاظ الحديث) وتأليف (المعجم المفهرس لآيات القرآن الكريم). وكتفصيلهم آيات القرآن الكريم حسب الموضوعات إلى غير ذلك ..

ومن الجامعات التي اهتمت بالاستشراق فأنشأت له كراسي جامعية جامعة السوربون في فرنسا ، وجامعة لندن في بريطانيا ، وغيرهما. وقد بلغ بهذه الجامعات أن أخذت تعطي شهادات في الدراسات الشرقية عامة والإسلامية خاصة. ومما يؤسف له أن بعض هذه الجامعات تدعم من قبل

بعض الدول العربية. ظنا منهم أن في دعمهم لها تعريفا للغرب على الإسلام. ورأى اليهود في الاستشراق بابا يحقق أغراضهم وأهدافهم فدخلوه باهتمام بالغ حتى وصل بعضهم لرئاسة بعض هذه الأقسام واحتلال كثير من كراسيها الجامعية مثل جولد تسيهر وغيره.

كما أن الدول الأوربية الشرقية بعد نجاح الثورة الشيوعية في بلادهم اهتمت بالحركة الاستشراقية لاستخدامها في حرب الإسلام الذي يقف سدا منيعا في طريق انتشارها. وهكذا نجد أن الاستشراق ولد في حضن التبشير وكبر في حضن الاستعمار والصهيونية والشيوعية.

م/٢ دوافع المستشرقين وأهدافهم

باستطاعتنا أن نتعرف على دوافع المستشرقين وأهدافهم من خلال أعمالهم ، ومن النظرات التاريخية إلى واقع حال الدول الغربية ، قبل أن تظهر فيها ظاهرة الاستشراق وبعدها ، ومن النظر في صلة الاستشراق بالتبشير ، وإلى صلته بالاستعمار .. إلخ فسأذكر فيما يلي خلاصة عن دوافعهم وأهدافهم. مع العلم أن الدوافع تلتقي مع الأهداف ، باعتبار أن الدافع يمثل المحرض النفسي لاتخاذ الوسائل التي توصل إلى الأهداف الغائبة من العمل.

أ ـ دوافع الاستشراق :

تنوعت دوافع الاستشراق خلال فترات نشأته منها :

١ ـ الدافع النفسي :لا شك أن حب الاطلاع والتعرف على حياة الآخرين وأفكارهم وسبل معيشتهم أمر فطري غريزي في الإنسان وهذه الرغبة متأصلة في أعماق النفس البشرية لا يمكن أن تستأصل. ومن أجل هذه الرغبة يتحمل الإنسان المتاعب والمصاعب بأنواعها.

لذا فهذا الدافع كان من أول الدوافع التي جعلت المستشرقين يهتمون بالشرق وحضارته وسبل عيش أهله وطرق تفكيرهم ، إلى غير ذلك مما يجهلونه ويحبون أن يطلعوا عليه.

٢ ـ الدافع التاريخي :العلاقة بين الشرق والغرب قديمة جدا ، كان يصحبها في بعض الأحيان عداء وحروب بين الطرفين ، وصراع من أجل السيطرة سواء كانت فكرية أو عسكرية. مما يدعو كل طرف منهما للاطلاع على ما عند الآخر من عقائد ، وتراث وحضارة وعادات وقيم ليخترقه ويسيطر عليه من خلال نقاط الضعف التي فيها. ومن الأمثلة على ذلك الحروب الصليبية حيث اقتضت هذه الحروب استصحاب من له خبرة واطلاع على جغرافية الشرق وأحوال أهله وديانتهم وعاداتهم .. إلى غير ذلك من الأمور .

٣ ـ الدوافع الاقتصادية والتجارية :

من الدوافع التي كان لها الأثر في تنشيط حركة الاستشراق ، رغبة الغربيين في التعامل مع الشرق لترويج بضائعهم في أسواقه والاستيلاء على موارده الطبيعية الخام بأبخس الأثمان ؛ لذا حرصوا على فتح أسواق تجارية لصناعاتهم في منطقتنا ، وحرصوا كذلك على قتل النشاط الصناعي والتجاري في شرقنا حتى يبقى متخلفا ، شاعرا بالنقص والحاجة لهم ، منهزما نفسيا أمام تقدمهم مما يسهل خضوعه وخنوعه وانقياده لهم.

٤ ـ الدافع الديني :

إننا لا نحتاج إلى عناء كبير للتعرف على دافع الاستشراق الديني فقد بدأ

الاستشراق أول ما بدأ كما ذكرت سابقا من الفاتيكان ، وكان أول رواده من رجال الكنيسة وعلماء اللاهوت حيث ظلوا المشرفين على هذه الحركة والمسيرين لها حتى القرن التاسع عشر ؛ وذلك للدفاع عن الكنيسة وسلطانها ولمواجهة الضغوط الشديدة المتزايدة من المفكرين المتمردين عليها ، خاصة وأن بعض المتمردين وجدوا في الإسلام فرصة لتفكيرهم وتخلصا من سلطان كنائسهم التي تحجر على عقولهم ، حيث أظهر بعضهم إعجابه بالإسلام. مما أفزع الكنيسة ودفعها لمحاربة الإسلام بثلاثة اتجاهات :

١ ـ الطعن في الإسلام وتشويه حقائقه ، والافتراءات عليه بمختلف الأكاذيب لشحن أتباعها ضده وتنفيرهم منه ، والإثبات لجماهيرها التي تخضع لسلطانها أن الإسلام هو الخصم الوحيد للمسيحية وهو دين لا يستحق الانتشار ، زاعمة أن أتباعه ـ على حد زعمهم ـ قوم همج متخلفون ، سراق نياق ، سفاكو دماء ، يبحثون عن المتعة الرخيصة من الكأس إلى غير ذلك من الأباطيل والافتراءات التي لا تمت للحقيقة بصلة.

٢ ـ حماية النصارى من خطر الإسلام بالحيلولة بينهم وبين رؤية حقائقه الناصعة ، وآياته البينة الواضحة ، وتاريخه المجيد حتى لا يؤثر عليهم فيدخلوا فيه.

٣ ـ محاولة تنصير المسلمين فمن أجل ذلك جهزوا جيوشا من المنصرين لهذا الغرض ، ووضعوا بين أيديهم الإمكانيات الكبيرة ؛ لإعطاء الثقة لمن فقدها من أبناء جنسهم ، ولهز ثقة المسلمين أنفسهم في دينهم.

٥ ـ الدافع الاستعماري والسياسي :لازمت حركة الاستشراق الاستعمار الغربي لبلاد الشرق الإسلامي فقداستطاع الغرب المسيحي أن يسيطر على كثير من بلدان العالم الإسلامي. وقد كان هذا الاستعمار امتدادا للحروب الصليبية التي كانت في ظاهرها دينية وفي باطنها استعمارية.

ولم تأت نهاية القرن التاسع عشر حتى كانت كل أجزاء العالم الإسلامي تقريبا قد سقطت في براثن الاستعمار الغربي. وليتم لهم السيطرة ، وليتمكنوا من الاستمرار في بقائهم في هذه البلاد كان لازما عليهم دراسة أحوال الشرق ، وتاريخه ، ولغاته وعقائده فجندوا لهذه المهمة عددا كبيرا ممن لهم دراية بالشرق وأحواله فسخروا علمهم لخدمة الاستعمار البغيض فكان هؤلاء المستشرقون عملاء لحكوماتهم ، وشركاء لهم في صنع القرار السياسي في آن واحد.

بعد تحرر البلاد الإسلامية من الاستعمار العسكري رأى ساسة الغرب أن يكون الاستعمار له طابع آخر وهو أن يكون استعمارا فكريا ؛ لذا اقتضى الأمر أن تزود القنصليات والسفارات والمؤسسات الدولية التابعة لهم بمن لديهم الخبرة في الدراسات الاستشراقية ليبثوا ما تريده دولهم من اتجاهات سياسية ، وليقوموا بمهمات سياسية متعددة منها :

١ ـ الاتصال بالسياسيين والتفاوض معهم لمعرفة آرائهم واتجاهاتهم.

٢ ـ الاتصال برجال الفكر والصحافة للتعرف على أفكارهم وواقع بلادهم.

٣ ـ بث الاتجاهات السياسية التي تريدها دولهم ، فيمن يريدون بثها فيهم وإقناعهم بها.

٤ ـ الاتصال بعملائهم وأجرائهم الذين يخدمون أغراضهم السياسية داخل شعوب الأمة الإسلامية.

وقام هؤلاء المستشرقون بدراسة هذه البلاد في كل شئونها من عقدية وعادات وأخلاق وثروات ولغات وتاريخ إلى غير ذلك. للتعرف على مواطن القوة فيها فيضعفوها ، وإلى مواطن الضعف فيغتنموها ، ولإضعاف المقاومة الروحية والمعنوية في نفوس المسلمين ، وبث الوهن والارتباك في تفكيرهم ، وكان لهم في ذلك دسائس تسللوا بها إلى نفوس المسلمين منها :

١ ـ التشكيك بفائدة ما في أيدي المسلمين من تراث ، وبما عندهم من عقيدة وشريعة ، وخلق وقيم إنسانية. ليفقدوا الثقة بأنفسهم ويرتموا في أحضان الغرب يستجدون منهم المقاييس الأخلاقية والمبادئ والعقائد والحلول لمشاكلهم ، ليتم للغرب إخضاع المسلمين لحضارته وثقافته إخضاعا كاملا.

٢ ـ إحلال مفاهيم جاهلية ماتت منذ انتشر الإسلام ، كالقوميات الفرعونية ، والفينيقية ، والآشورية ، والعربية والكردية والتركية ، والفارسية ، ونحو ذلك ؛ ليتسنى لهم تشتيت شمل الأمة الواحدة.

٣ ـ إحلال الفتن الطائفية بين السكان كالمسلمين والنصارى والدروز والعلويين ، وغير ذلك. وما حرب لبنان عنا ببعيد. وإشعال الفتن بين الدول الجارات كما حصل في إشعالهم الحرب بين العراق وإيران وتمزيق وحدة الأمة الواحدة بسياستهم «فرق تسد» ، وطبخ الانقلابات العسكرية لصالح سياسة دولة من دولهم .. حتى باتت كثير من حكوماتنا عسكرية تحكم شعوبها بالحديد والنار وسفك

الدماء وسجن الأحرار والمصلحين. مع أنهم لا يرضون لأنفسهم إلا الديمقراطية وكامل الحرية الشخصية للفرد.

٦ ـ الدافع العلمي : من المستشرقين نفر قليل جدا أقبل على الدراسات الاستشراقية لإشباع نهم علمي متجرد. وذلك بدافع من حب الاطلاع على حضارات الأمم ، وأديانها ، وثقافاتها ، ولغاتها. وكان هؤلاء النفر من المستشرقين أقل من غيرهم خطأ في فهم الإسلام وتراثه ، حيث جاءت بحوثهم أقرب إلى الحق والصواب ، إلا أن موارد هؤلاء المالية الخاصة بهم كانت قليلة لا تسعفهم بالانصراف لمثل هذه الدراسات والتي لا تلقى رواجا عند رجال الدين ولا عند رجال السياسة في بلدانهم ؛ لذا كسدت بحوثهم فقل عددهم حتى أصبحوا نادرين وهؤلاء مع إخلاصهم في البحث والدراسة لم يسلموا من الأخطاء والاستنتاجات البعيدة عن الحق ، إما لجهلهم بأساليب اللغة العربية وإما لجهلهم بالأجواء التاريخية الإسلامية على حقيقتها ، فيتصورونها كما يتصورون مجتمعاتهم الغربية ، ناسين الفروق الطبيعية والنفسية والزمانية التي تفرق بين المجتمعين ، ومن استطاع من هؤلاء أن يعيش بقلبه وفكره ويتجرد من جو البيئة التي كان يعيش فيها ، أتى بنتائج توافق الحق والصدق والواقع ومثل هؤلاء المستشرقين لا يدعهم قومهم وشأنهم ، بل يهاجمونهم ، ويتهمونهم بالانحراف عن المنهج العلمي ، والانسياق وراء العاطفة لمجاملة المسلمين. ومن هؤلاء المستشرقين المستشرق «توماس أرنولد» الذي حين أنصف المسلمين في كتابه (الدعوة إلى الإسلام) الذي برهن فيه على تسامح المسلمين في جميع العصور مع مخالفيهم في الدين ، ومن هؤلاء المستشرقين من أدى به بحثه الخالص لوجه الحق إلى اعتناق الإسلام كما حصل ذلك مع المستشرق الفرنسي الفنان «دينيه» والذي سمى نفسه «ناصر الدين دينيه» وألف بعد ذلك مع عالم جزائري كتابا عن سيرة الرسول صلىالله‌عليه‌وسلم. و «لدينيه» كتاب آخر بعنوان (أشعة خاصة بنور الإسلام) بين فيه تحامل قومه على الإسلام ورسوله. ومنهم المستشرق المجري «عبد الكريم جرمانوس» الذي أسلم في الهند سنة ١٩٣٠ م والذي ألف أكثر من (١٥٠) كتابا عن الإسلام ومنهم الطبيب الفرنسي «موريس بوكاي» صاحب كتاب «دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة» الذي أثبت فيه موافقة القرآن لأحدث الحقائق العلمية التي توصل إليها الناس بوسائلهم المختلفة اليوم ، وغير هؤلاء كثير.

ب ـ أهداف المستشرقين :

سنتناول أهم أهداف المستشرقين التي واكبت حركة الاستشراق في خلال مسيرتها. وسأستعرض هذه الأهداف بشيء من التفصيل :

١ ـ منع انتشار الإسلام في أوربا وغيرها والحيلولة بينه وبينهم ، حفاظا على سلطان الكنيسة ومغانمها. وذلك لما رأوا في الإسلام من تمتع بقوى ذاتية يصل من خلالها للنفوس ، بسبب جلاء معانيه ، وبساطة تعاليمه ، وانسجامه مع الفطرة ، وصلاحيته لكل زمان ومكان وفي كل الظروف لذا قاموا بتشويه الإسلام ، وحجب محاسنه عن أقوامهم لإقناعهم بعدم صلاحيته لهم كنظام حياة.

٢ ـ اقتباس أفكار إيمانية من الإسلام لتثبيت أقدام الكنيسة في بلادها بفكر ديني معقول. وهذا يظهر جليا في مسائل القضاء والقدر وكلزوم التداوي من الأمراض اليوم وخلاف ما كان يعتقده القوم سابقا. واختيار الإنسان في أعماله الإرادية ..

٣ ـ جعل الدراسات الاستشراقية مصدرا لتعليم الإسلام للمسلمين أنفسهم ومصدرا للدراسات عن الشرق عامة.

٤ـ تمزيق الوحدة اللغوية في الأمة الإسلامية حرصا على تمزيق عقيدة الأمة ووحدتها ، إذ صب المستشرقون وعملاؤهم أشنع الاتهامات على اللغة العربية فزعموا أنها عاجزة عن مسايرة ركب الحضارة المعاصرة ، وموكب العلم الحديث مع أن هذه اللغة أقوى لغات العالم في توليد الألفاظ والكلمات اللازمة للمعاني المستحدثة بالنحت والاشتقاق ، والقلب والإبدال والتعريب.

٥ ـ إضعاف الشخصية الإسلامية بالاحتيال والتزوير في تاريخ الإسلام المجيد ، ومحاولة تحطيمها كذلك بالحرب النفسية ، ومن المعروف أن التاريخ المجيد ذا الصفحة البيضاء لأي أمة يعتبر من أهم العناصر الفعالة في تكوين شخصية المواطن لتصبح قوية وتندفع في سلّم الترقي والتقدم فالتاريخ هو شخصية الأمة.

٦ ـ تحويل المسلمين عن دينهم ، وإشاعة البلبلة الفكرية في صفوفهم ، وتحطيم الوحدة الفكرية التي تجمعهم ؛ لتصير البلاد لقمة سائغة للأعداء ، ويصير المسلمون أتباعا لهم خاضعين لسلطانهم.

٧ ـ تأييد الغزو الاستعماري لبلاد المسلمين والعمل على تحطيم المقاومة الإسلامية.

٨ ـ التنفير من العودة للخلافة الإسلامية .

٩ ـ تشكيك المسلمين بقيمة تراثهم الحضاري ، فقد ركز المستشرقون في أبحاثهم على أن الحضارة الإسلامية منقولة عن حضارة الرومان ، وما المسلمون في نظرهم إلا ناقلون لفلسفة هذه الحضارة ، وقد شككوا كذلك في التراث العلمي للمسلمين زاعمين أنه قد دخله التحريف والوضع والكذب كما هو حال الحديث النبوي الشريف.

م/٣ : وسائل المستشرقين

تعددت وسائل المستشرقين في الوصول لتحقيق أغراضهم ونشر أفكارهم الاستشراقية. وذلك لأنه أصبح استشراقا مبرمجا وراءه مؤسسات دينية أو سياسية أو اقتصادية تدعمه.

وقد أخذت هذه المؤسسات تغدق على المستشرقين بالأموال الطائلة ، والمناصب العالية والألقاب الرفيعة ، وحبست لهم الأوقاف ليتمكن العاملون في هذا المجال من أداء مهماتهم بيسر وسهولة.

فمن هذه الوسائل التي استخدموها :

١ ـ تأليف الكتب ، وتحقيق المخطوطات ، وإصدار الموسوعات العلمية الإسلامية والشرقية بوجه عام وغير ذلك.

أ ـ تأليف الكتب :

قام المستشرقون بتأليف الكتب في جميع العلوم العربية والإسلامية والشرقية مظهرين عليها طابع العلم المتجرد ولكن هذه الكتب لم تخل من دسهم فيها مقدارا من السم وإن كانوا حريصين كل الحرص أن لا يزيدوا على مقدار قدروه ، ونسبة عينوها حتى لا يستوحش القارئ ولا يثير ذلك فيه الحذر ، ولا تضعف ثقته بنزاهة المؤلف وهذا فيه صعوبة بالغة لرجل متوسط في عقليته أن يدرك هذه السموم لذا فتجده ينساق لها ويتأثر بهذه الكتابة. وكتابة هؤلاء أشد خطرا علينا ممن يجاهر بالعداء ويسفر عن ذلك في كتاباته فالحرص منه أسهل [١] وسيأتي ذكر مجموعة من هذه المؤلفات تحت مبحث خاص بها.

ب ـ تحقيق كتب التراث :

اهتم المستشرقون بعملية تحقيق كتب التراث في الشرق عامة والإسلام خاصة في كل موضوع من مواضيع القرآن الكريم والسنة المطهرة والسيرة النبوية العطرة ، والفقه والكلام.

كما تحدثوا عن تاريخ الإسلام ، والصحابة والتابعين الكرام ، والأئمة المجتهدين والمحدثين والفقهاء ، والمشايخ والصوفية ، ورواة الحديث وعن فن الجرح والتعديل ، وأسماء الرجال ، وحجية السنة ، وتدوينها ، ومصادر الفقه الإسلامي ، وتطوره في أسلوب لا يخلو عن التشكيك وإثارة الشبهات ، ويكفي لزعزعة العقيدة والترغيب عن الإسلام لرجل ليس له نظر عميق في هذا الموضوع ، وغالبا يشتركون في التحقيق مع بعض العلماء المسلمين ولكنهم يخفون أسماءهم لسبب أو لآخر.

ولا شك أن ما حققوه من تراثنا كان من أجل خدمة أغراضهم وأهدافهم وليتعرفوا على أسرار هذا الدين العظيم.

ج ـ إصدار الموسوعات العلمية:-

ومما اعتنى به المستشرقون على اختلاف جنسياتهم إصدار الموسوعات العلمية عن الشرق وعلومه. ومن أخطر هذه الموسوعات (دائرة المعارف الإسلامية) والتي صدرت بعدة لغات عالمية وقد كتبت بأسلوب علمي ميسر للمثقف العام مما جعلها موضع إقبال أبناء المسلمين أنفسهم. وقد حشد لهذه الموسوعة كبار المستشرقين ، وأشدهم عداء للإسلام ودس فيها السم بالدسم ، ونثرت فيها أباطيل كثيرة عن الإسلام والمسلمين.

ومن المؤسف أنها مرجع لكثير من المثقفين من أبناء المسلمين وكذلك لكثير من العلماء والمفكرين على ما فيها من خلط وتزييف وقلب للحقائق وتعصب سافر ضد الإسلام والمسلمين.

وهناك موسوعات عامة : كالموسوعة الفرنسية (لاروس) والموسوعة البريطانية [1] ، وموجز دائرة المعارف الإسلامية ، وموسوعة معارف العلوم الاجتماعية ، ودائرة المعارف (الدين والأخلاق) وغيرها كثير.

د ـ صنع المعاجم اللغوية وغيرها :

كما اهتم المستشرقون بتأليف المعاجم وقد أفادوا كثيرا في هذا الجانب من المعاجم الإسلامية المتقدمة منهاجا ودقة فمنها :

أ ـ معاجم دينية : وهذه المعاجم بعضها اهتم بالآيات القرآنية مثل : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن وبعضها اهتم بالحديث النبوي الشريف كالمعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي الشريف.

ب ـ معاجم لغوية : ومما اهتم به المستشرقون كذلك صناعة المعاجم اللغوية.

مثل : تاريخ الأدب العربي ـ بروكلمان ـ وهو مشهور في الأوساط الأدبية واللغوية والعلوم الإسلامية.

وكتاب تاريخ الأدب العربي وهو في سبع مجلدات تأليف «هامر بوجشتال» وقد ترجم ل (٩٩١٥) أديبا وشاعرا.

ومن أضخم هذه المعاجم معجم فينشك الروسي (١٩٠٢ ـ ١٩٣٩) وكانت مدة عمله له في ١٥ سنة وقد تمكن من تسويد (٣٠٠) ألف بطاقة وتوفي ولم يكمله.

ومن أعظمها انتشارا وأهمية معجم فيشر اللغوي الأدبي المقارن باللغات السامية القديمة والذي جمع فيه اللغة من ديوان امرئ القيس والقرون الثلاثة الأولى بعد الهجرة.

ج ـ معاجم عامة : مثل المعجم العام ل «هوبلر الفرنسي» ١٦٢٥ ـ ١٦٩٥ ومعجم الإسلام بالإنكليزية «هيوز» لندن ١٩٨٥ وغيرها.

هـ ـ ترجمة الكتب الإسلامية للغاتهم :

كما اهتم المستشرقون بترجمة كثير من الكتب الإسلامية خاصة والشرقية عامة للغاتهم المختلفة والذي يزور مكتباتهم يجدها حوت كثيرا من تراثنا بكل فروع العلوم مترجمة إلى لغات القوم المتعددة ؛ وذلك ليسهل عليهم الرجوع لها ، ولأن الكثير منهم لا يجيدون العربية ولم تتح لهم الفرصة لتعلمها وعلى رأس هذه الكتب التي قاموا بترجمتها القرآن الكريم ـ لتزييف مفاهيمه وانتقاصها ـ وكتب السنة وعلى رأسها الصحيحان إلى غير ذلك من الكتب.

٢ ـ إنشاء المطابع الشرقية :

دأبت البلاد الغربية على إنشاء المطابع التي تحوي الحروف العربية والعبرية والفارسية ، وغيرها ، حيث بدأت هذه المطابع عملها في إيطاليا ثم في فرنسا. ومن هذه المطابع في أسبانيا مطبعة مايستري في مدريد ومطبعة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد أيضا ، وفي النمسا المطبعة الإمبراطورية والمطبعة الشرقية للآباء المختارين. وفي هولندا مطبعة ليون وهناك كثير من هذه المطابع في مختلف أنحاء أوربا.

أما الهدف من إنشاء هذه المطابع وذلك لتسهل عليهم مهماتهم بإيصال أفكارهم إلى العالم الإسلامي بسهولة ويسر.

٣ ـ إنشاء الجمعيات وإصدار المجلات والصحف :

من الأمور التي اهتم بها المستشرقون لبث أفكارهم وتحقيق أغراضهم إنشاء الجمعيات الاستشراقية وإصدار المجلات والدوريات فقد زاد عدد هذه المجلات وحدها عن (٣٠٠) مجلة خاصة بالاستشراق ، عدا المئات من مجلاتهم العامة التي تتعرض له في موضوعاتها العامة ، كمجلة القانون المقارن ومحفوظات التاريخ ، ومباحث العلوم الدينية وهي تنتشر بعدة لغات عالمية والتي ينشر فيها مباحث ومخطوطات ووثائق وغير ذلك [٢] من الدراسات المختلفة.

أ ـ أنشأ الفرنسيون جمعية من المستشرقين سنة ١٧٨٧ م وألحقوها سنة ١٨٢٠ بالجمعية الآسيوية الفرنسية تعاضدها وتتعاون معها ، ثم أصدرت هاتان الجمعيتان (المجلة الآسيوية) ومن المجلات الفرنسية المشهورة التي علا صيتها

(مجلة العالم الإسلامي) وهذه المجلة تتجه اتجاها تبشيريا (كاثولوكيا) وقد كان ظهورها في سنة ١٩٠٦ م بإدارة المسيو «الفرد لوشاتليه» الأستاذ في كلية فرنسا.

ب ـ في إنجلترا تألفت جمعية لتشجيع الدراسات الشرقية عام ١٨٢٣ م ، وقد كان ملك إنجلترا الرئيس الفخري لها وقد صدر عنها مجلة (الجمعية الآسيوية الملكية).

ج ـ في أمريكا أنشأ الأمريكيون سنة ١٨٤٢ م جمعية ومجلة. فقد كانت الجمعية باسم (الجمعية الشرقية الأمريكية).

أما المجلات التي أصدرها الأمريكيون في هذا القرن ـ منها مجلة (جمعية الدراسات الشرقية) وكانت تصدر في مدينة «جامبير» في ولاية أوهايو ، ولها فروع في معظم عواصم أوربا في لندن وباريس وغيرها. ومثلها مجلة (شئون الشرق الأوسط) ومجلة (الشرق الأوسط) وطابعها كلها على العموم طابع الاستشراق السياسي.

ومن أخطر المجلات التي يعنى بها المستشرقون الأمريكيون في الوقت الحاضر (مجلة العالم الإسلامي) التي أنشأها زعيم المستشرقين المنصرين «صمويل زويمر» في سنة ١٩١١ م وهذه المجلة تعنى بالاستشراق التنصيري وذلك لتشجيع الإرساليات التنصيرية (البروتستانت) وتناولت القضايا التي تتصل بتنصير العالم الإسلامي [١].

وسأذكر بعض هذه المؤسسات التعليمية الاستشراقية.

أ ـ إنشاء المدارس :

اهتم المستشرقون بالمدارس ذات الطابع التبشيري ، والمدارس الحديثة التي أسست على مفاهيم غربية ، حيث وضعوا لها المناهج الخاصة وزودوها بمدرسين ذوي مهمة خاصة ليربّوا عليها النشء بطريقتهم الخاصة.

وإنشاء هذه المدارس مهمة ذات اتجاهين : تبشيرية استشراقية ؛ لأن الاستشراق مغذ لروح التبشير والعقل المدبر له ، فمن المدارس الغربية ذات الطابع التبشيري :

١ ـ أسس البابا «سلفستر الثاني» مدرستين عربيتين لتدريس اللغة العربية والحضارة الشرقية ، وكانت الأولى في «روما» في مقر بابويته ، والثانية في راميس وطنه ، ثم أضاف بعد ذلك مدرسة ثالثة وهي مدرسة «شارتز».

٢ ـ مدارس خاصة لأغراض سياسية :

أ ـ المدارس العربية ومعهد «بريل» في مدينة ليون ب (هولندا).

ب ـ مدرسة أكسفورد في إنجلترا.

ج ـ مدرسة القناصل الإمبراطورية الملكية في النمسا أما في البلاد العربية والإسلامية فقد اهتم المستشرقون بإنشاء المدارس الخاصة بهم والتي تخدم أغراضهم. من هذه المدارس :

أ ـ مدارس الفرير في سوريا والأردن.

ب ـ ومدارس دي لي سال ، وتراسانتا في الأردن.

ج ـ ومدارس سان فنستان دي بول في القاهرة.

د ـ والمدرسة الشرقية في تركيا.

هـ ـ الكلية اليسوعية والتي حول اسمها إلى الكلية الأمريكية في لبنان ومصر ولا تزال.

و ـ مدرسة اللائيك في حلب.

ز ـ مدرسة الأرض المقدسة في حلب.....وغيرها كثير في بلاد العالم الإسلامي المترامية الأطراف.

ب ـ إنشاء المعاهد :

أما المعاهد فهي كثيرة وهي في العالمين الغربي والعربي وهذه المعاهد في الغالب تكون تابعة لجامعة من الجامعات في العالم الغربي.

فمن ذلك معهد الدراسات الشرقية في لندن الذي أنشأته الحكومة البريطانية سنة ١٩١٧ م ومهمة هذا المعهد إعداد رجال ونساء يخدمون وطنهم في الشرق إمّا في السلك السياسي أو التجاري ، أو في دوائر الحكومة وراء البحار ، أو في ميادين الثقافة.

أما في المنطقة العربية فقد أنشأ الألمان «معهد جوته الألماني» في القاهرة ، وأنشأ الفرنسيون «المعهد الفرنسي للآثار الشرقية» في القاهرة ، ودمشق ، وطهران ، وتونس.

ج ـ إنشاء الكراسي الجامعية :

وقد حقق هذا اللون من النشاط غاية ما تصبو إليه أنفس المتحاملين من المستشرقين ومن أمثلة هذا اللون من النشاط :

١ ـ كرسي للدراسات الشرقية بجامعة سانت أندريز سنة ١٩٦٨ م وقد أسست هذه الجامعة في مدينة لا باس في بوليفيا عام ١٨٣٠ م.

٢ ـ كرسي للدراسات الإسلامية بجامعة كمبردج. وبها كرسي آخر تأسس عام ١٩٣٢ م تعهد توماس أدافر رئيس بلدية لندن بتمويله.

٣ ـ مركز الشرق الأوسط للدراسات العربية في جامعة لندن وهو باسم مركز الدراسات الآسيوية والأفريقية ، ومركز للدراسات الشرقية بجامعة مانشستر والذي تموله دولة عربية وكثير من الجامعات فتحت مثل هذا اللون من النشاط الاستشراقي

الجامعات في الدول الإسلامية :

١ ـ الجامعة الأمريكية في بيروت وهي الكلية السورية الإنجيلية والتي أنشئت سنة (١٢٨٣ هـ / ١٨٦٦ م) وفروعها في تركيا والقاهرة.

٢ ـ جامعة القديس يوسف في بيروت (١٢٩١ هـ / ١٨٧٤ م) أنشأها اليسوعيون بدعم من فرنسا

أبرز المستشرقين اليهود

١ ـ جولد تسيهر اليهودي المجري وكتبه كلها مليئة بالافتراءات والأباطيل ضد الإسلام. مثل كتابه : (العقيدةالإسلامية)و(مذاهب التفسيرالإسلامي) ولنا وقفة طويلة مع افتراءاته في موطنها من الرسالة.

٢ ـ مكسيم رودنسون ـ يهودي ماركسي ـ ألف كتابا بالفرنسية عن محمد ـ صلىاللهعليهوسلم ـ والكتاب مشحون بالافتراءات الاستشراقية على الرسول ـ صلىاللهعليهوسلم ـ ورسالته وكثير من هذه الافتراءات مستمدة من التفسير المادي (الاقتصادي) للتاريخ عند «كارل ماركس».

ومن التحليل النفسي (الجنسي) للإنسان عند سيجموند فرويد ـ وكلها افتراءات ساقطة مبتذلة نعف عن مجرد ذكرها.

٣ ـ دافيد سانتلانا (١٨٥٥ ـ ١٩٣١ م) يهودي سياسي جامعي. ولد في أسرة يهودية في تونس ومن أصل أسباني قديم وأسرته تحمل الجنسية الإنكليزية. كان أبوه قنصلا بريطانيا في تونس. وحاول (سانتلانا) أن يقيم تشابها بين الفقه الإسلامي وبين القانون الروماني والقانون الأوربي الحديث.

مع أن هذه المحاولة لا يقوم عليها دليل ، أو حجة سليمة فقد خدمت روحه وتطلعاته الاستشراقية انكلترا وإيطاليا وفرنسا معا.وكان أكثر اهتماماته بالحركة الصوفية ورجالها ومبادئها وربطه بالتصوف اليوناني الأفلاطوني والتصوف المسيحي ... إلخ.

٤ ـ «ليفي بروفنسال» في المغرب العربي. يهودي فرنسي استعماري وكان أستاذا جامعيا في جامعة (تولوز) في باريس ولد في الجزائر العاصمة من أسرة يهودية ، وشب على أيدي كبار المستشرقين الفرنسيين أمثال : «رينيه باسيه» و «جيروم».

واستطاع بذكائه الماكر أن يخفي مشاعره اليهودية ، على الرغم من تورطه في كثير من كتاباته في الإساءة للإسلام والتنصير من مجتمع المسلمين مما حقق له ولأمثاله لمعانا وشهرة في مجتمعاتهم وبين قومهم.

وقد ركز في كتاباته على إهمال البعد الديني في انتشار الإسلام السريع والمبكر في العالم حينذاك زاعما أن ذلك لحب السيطرة وجمع الثروة ، وبخاصة في الأندلس والمغرب العربي ، وقد صور العرب طبقة أرستقراطية خاصة في الأندلس.

٥ ـ بول كراوس (١٩٠٤ ـ ١٩٤٤) تشيكي سياسي جامعي صهيوني (٣). وغير هؤلاء كثير.

م/٤ : المستشرقون وكتاباتهم حول القرآن الكريم

مستشرقون أفردوا مؤلفات حول القرآن الكريم

هذه المحاضرة أفردتها للحديث عن بعض الكتب التي تحدثت عن القرآن الكريم ، وقد بلغت ثلاثة عشر كتابا ، واقتصرت على كتابين فقط نظرا لضيق الوقت ، والباقي ممكن ان يطلع عليه من خلال المصادر التي ثبتها أسفل كل محاضرة ، عرفت بالمؤلف بشكل يسيير وبإيجاز[١].

الكتاب الأول : مقدمة القرآن لمؤلفه ريتشارد بل

تعريف بالمؤلف :«ريتشارد بل» إنجليزي الأصل وهو أحد أساتذة اللغة العربية بجامعة ادنبره ، صرف سنين عدة من عمره في دراسة القرآن الكريم وتاريخه دراسة وافية متتالية فكان من أشهر أعماله :

١ ـ ترجمة للقرآن الكريم .. سنة ١٩٣٧ م ـ ١٩٤١ م.

٢ ـ ومقدمته للقرآن الكريم .. وهي قيد التعريف.

٣ ـ أسلوب القرآن الكريم .. سنة ١٩٤٢ م ـ ١٩٤٤ م.

٤ ـ المتشابه في القرآن الكريم .. سنة ١٩٨٢ م.

٥ ـ أهل الأعراف .. سنة ١٩٣٢ م.

٦ ـ سورة الحشر .. سنة ١٩٤٨ م.

وله عدة مقالات أهمها :

١ ـ «الحديث عند المسلمين» سنة ١٩١٣ م ـ ١٩٢٢ م. نشرت هذه المقالة في الجمعية الشرقية.

٢ ـ «أذن في الناس بالحج» نشرت هذه المقالة في مجلة الجمعية الملكية الآسيوية ١٩٣٧ م.

٣ ـ «معلومات محمد عن العهد القديم» نشرتها مجلة الدراسات السامية والشرقية سنة ١٩٤٥م ، وغير ذلك من الأبحاث والمقالات الكثيرة.

التعريف بالكتاب : أصدر «بل» هذه المقدمة سنة ١٩٣٥ م وطبعتها مطبعة جامعة أدنبره ، وقد مات المؤلف أثناء عمل تجارب الطباعة لهذا الكتاب فقرأها صديقه «جلبرت واطسون» الذي كان

يشغل وظيفة كبير المفتشين لمدارس اسكتلندا ، وراجعه القس «أ. ت. جوردن» الحاصل على درجة الماجستير في الآداب ، وأستاذ اللغة العربية ، والدراسات الإسلامية بالجامعة الأمريكية بالقاهرة.

وقد قام بتجميع العمل «ر. ر. كلارك» وبلغت عدد صفحات الكتاب (١٧٣) بالقطع المتوسط غير الفهارس.

وقد قسمه إلى فصول عدة ، وهي : الفصل الأول : وعنوانه : (الموقف التاريخي ومحمد):

تحدث «بل» في هذا الفصل عن البيئة التي نبتت فيها الدعوة الإسلامية وما كان لها من تأثير على التعاليم والعقائد الإسلامية ، كالاعتقاد بالجن وموقفه من الكهان ، وتأثير اليهودية والنصرانية والحنفاء على الأسلوب القرآني، وتأثير الموقف العالمي حول الجزيرة على الدعوة الإسلامية وخاصة المجوسية والزرادشتية.

ثم تحدث عن موقف الإسلام من المرأة، ثم عن الكتابة والقراءة وتأثير ذلك على رسول الله ـ صلىالله‌عليه وسلم ـ .

ثم ذكر نبذة عن سيرة رسول الله ـ صلىالله‌عليه وسلم ـ ثم تحدث عن الأشهر العربية والأشهر الحرم منها. ثم ختم الفصل بالحديث عن الوحي ومعناه ، واستعمالاته في القرآن الكريم.

الفصل الثاني : وعنوانه : (أصل القرآن):

تحدث في هذا الفصل عن القرآن ونزوله وجمعه والصحف الخاصة بالصحابة رضوان الله عليهم ، والنص القرآني من حيث الزيادة والنقصان. متأثرا بأقوال بعض الفرق الذين يزعمون بأن النقص والزيادة والاضطراب دخل القرآن الكريم ، ثم تعرض في نهاية الفصل للقراءات القرآنية السبعة وقرائها ، ومن اعتنى بها من المستشرقين أمثال : براجشترستر ، وبيرتزل ، وآرثر جيفري ، وهؤلاء اعتنوا بهذا الجانب خاصة «القراءات الشاذة». ساردا بعض الأمثلة على ذلك ؛ ليخلص منها أن هذه القراءات ما هي إلا نسخ أخرى من القرآن الكريم تقابل النسخة العثمانية ليدلل على وجود الاضطراب والاختلاف في نص القرآن الكريم.

الفصل الثالث ـ :وعنوانه : (شكل القرآن):

تحدث المؤلف في هذا الفصل عن أقسام القرآن الكريم إلى أجزاء وأحزاب وأرباع وسور وعناوين السور ثم تحدث عن الحروف المقطعة ثم ذكر أن الغرض من وراء هذا التقسيم كان لغرض التلاوة ـ على حد تعبيره ـ ثم ذكر موقف ابن مسعود من المعوذتين ، ثم تحدث عن إيقاع الآيات القرآنية ،

وعن الصور الدرامية في القرآن الكريم ، ثم وضع جدولا إلى نهاية الفصل حسب طبيعة رد سلوب التي اعتمدها «فلوجل» ذاكرا أرقام هذه الآيات بأرقام رومانية.

الفصل الرابع ـ : وعنوانه : (بنية وأسلوب القرآن):

تحدث «بل» في هذا الفصل عن أسلوب القرآن الكريم زاعما أنه غلب عليه السجع والإلزامات المتكررة لتأثره بسجع الكهان كما ذكر أن أسلوبه امتاز بالقصر وشدة الإيقاع ، والتكرار ، والفقرات التوكيدية. وأنه كان غنيا بالقصص والحكايات الرمزية ، والتشبيهات ، والاستعارات .. إلخ.

الفصل الخامس ـ :وعنوانه : (تصنيف السور):

تكلم في هذا الفصل عن السور القرآنية من حيث الطول والقصر وتكرار العبارات المسجوعة والانقطاع النحوي للجمل والإقحامات لبعض الفقرات كتكميلات بديلة على حسب زعمه. زاعما أن هذه التكميلات كانت بعد تمام الجمع ، وأكد أن هذا كان بفعل جمعة القرآن الذين كانوا يضعون ما على ظهر الورقة بصورة عشوائية ، ثم ذكر أن عدم كفاية التفسيرات العادية لإيضاح بعض العبارات غير المترابطة أدى إلى بعض الاضطراب والخلط ، وضرب على ذلك بعض الأمثلة .

الفصل السادس ـ : وعنوانه : (الترتيب الزمني للقرآن):

عالج «بل» في هذا الفصل قضية الترتيب في القرآن الكريم وذكر موقف المستشرقين منها ، ومحاولات المستشرقين لترتيب القرآن الكريم ترتيبا زمنيا كمحاولة «نولديكه» و «موير» و «جريم» وغيرهم ، مبينا العناصر التي اعتمدوها في هذه المحاولات كتحليل مواد السورة بدراسة الأسلوب ، والصياغة وعلاقتها بتكليف محمد بالرسالة لأول مرة ، وعلاقة ذلك بمبدإ عقوبة الكافر ، مع بيان ردة فعله على عداوة يهود المدينة له مع مراعاة تواريخ بعض الفقرات ثم ذكر جدولا بين فيه ترتيب سور القرآن الكريم حسب المصحف العثماني وحسب رأي «نولديكه» و «جريم» و «موير»

تقويم الكتاب :الكتاب يمثل دراسة أكاديمية بذل فيها المؤلف جهدا كبيرا ولكنها لم تتجرد عن النزعة العدوانية للإسلام. وقد مُلئ كتاب «بل» بكثير من الأخطاء وسببها اعتباره القرآن الكريم من تأليف محمد ـ صلىالله‌عليه وسلم ـ لذا أخضعه لمقاييس الكتب البشرية من حيث الأفكار والأسلوب والمضمون وغير ذلك مما تورثه البيئة في فكر المؤلف وأسلوبه.

فمن هنا وجدنا «بل» يعتبر أن التأثير الأكبر على شخص رسول الله ـ صلىالله‌عليه وسلم ـ كان من البيئة المحلية كاليهودية والنصرانية والوثنية ومن البيئة الخارجية كالمجوسية والزرادشتية.

وكذلك وجدنا «بل» في كتابه ركز على الطعن في سلامة النص القرآني ، فزعم أنه مضطرب دخلته الزيادة والنقصان ، والتلفيق بين بعض الفقرات مبتدعا نظرية سماها (نظرية التكميلات البديلة).

كتاب المفردات الأجنبية في القرآن لمؤلفه (آرثر جيفري)تعريف بالمؤلف :

«آرثر جيفري» استرالي الجنسية عين أستاذا في الجامعة الأمريكية في بيروت ثم أستاذا في جامعة كولومبيا. ثم أستاذا للغات السامية في مدرسة اللغات الشرقية في القاهرة.

له عدة مؤلفات وعدة أبحاث عن الإسلام عامة وعن القرآن خاصة في مجال التحقيق والتأليف منها :

١ ـ تحقيق كتاب المصاحف لأبي داود السجستاني. وقد وضع له مقدمة باللغة الإنجليزية. طبعته مؤسسة دي خويه ج ١١ ليدن ١٩٧٣ م.

٢ ـ القرآن وهو عبارة عن موضوع عن (نصوص قرآنية) نشرها في مجلة العالم الإسلامي سنة ١٩٣٥ م ، وصحيفة الشرق الأوسط ١٩٤٧ م.

٣ ـ دراسة عن كتاب مختصر شواذ القراءات لابن خالويه ، نشرها في مجلة الدراسات الإسلامية ١٩٣٨ م.

٤ ـ أبو عبيد والقرآن ، موضوع نشره في مجلة العالم الإسلامي ١٩٣٨ م وغيرها.

تعريف بالكتاب :نشر هذا الكتاب باللغة الإنجليزية من ضمن سلسلة جيكوادر الشرقية برقم (٧٩) وقد نشر بإشراف حكومة صاحب السمو مهراجا بارودا.

وكان المحرر العام للكتاب ب. باتا شاربا راجا رائنا جنانا رائنا. وكان نشره في القاهرة سنة ١٩٣٧ م.وقد جاء الكتاب في تمهيد ومقدمة ثم موضوع الكتاب الرئيسي موزع على اللغات التي منها القرآن ثم ختمه بالفهارس.

التمهيد

ابتدأ «جيفري» الكتاب بتمهيد تحدث فيه المؤلف عن أهمية هذا الموضوع ذاكرا أن كثيرا من الدراسات التي قام بها كل من «هورفتز» وتلامذته ـ في جامعة فرانكفورت ـ وتورأندريا ، و «كارل اهرير» حول الأصول الإسلامية من خلال مناقشتهم للمفردات القرآنية. وقد ذكر المؤلف أن من أهمية هذا الموضوع أنه يبين تطور الفكر الإسلامي حول القرآن.

وقد ذكر أن هذه الدراسة عبارة عن تجميع لمصطلحات قرآنية دخلت القرآن ومصدرها لغات شتى ، كالفارسية ، والحبشية ، وغيرها ؛ بسبب التأثر بالغير نتيجة للاتصال التجاري والثقافي بين الجزيرة العربية وبلدان أصحاب هذه اللغات.

ثم ذكر بعد ذلك موقف العلماء من أصل هذه المفردات : فمن قائل : إنها عربية الأصل وتواردت عليها اللغات كالإمام الشافعي. ومنهم من اعتبرها غير عربية وإنما استخدمها العرب فاستعملها القرآن الكريم بعد ذلك وهو رأي الإمام السيوطي وغيره ، وقول بعض السلف كابن عباس ـ رضي الله عنه ـ.

وقد ذكر المؤلف أن الكتاب كان أربعة أضعاف حجمه الحالي ولكنه اختصره بسبب غلاء أسعار الطباعة إلى هذا الحجم والذي يؤدي الغرض بفهم القارئ للموضوع. وقد عقد المؤلف مقارنة بين الكتاب الأصلى والحالي معترفا بقصور عمله في هذا الموضوع. ومشيرا أنه لو قام به رجل آخر «كنولديكة» مثلا لجاء أدق وأوفى وأكثر فائدة وذلك لتمكن «نولديكه» من اللغات الشرقية.

تقويم الكتاب :هذه خلاصة ما ورد في كتاب «آرثر جيفري» (المفردات الأجنبية في القرآن الكريم).والكتاب مع ضخامة حجمه إلا أنه لم يأت بجديد سوى شكل الموضوع. فالمؤلف كان مجرد ناقل من بعض كتب المسلمين كالإتقان للسيوطي وبعض مؤلفات كالإمام ابن قتيبة.

وهذا الرأي ـ وجود بعض المفردات غير العربية في القرآن ـ كان مطروقا منذ عهد الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ وقد نسب مؤلف في هذا الموضوع لابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ باسم (اللغات في القرآن).

ولكن الجديد في الأمر أن المؤلف حاول جهده للربط بين بعض المفردات القرآنية وبين اللغات التي ذكرها برباط تاريخي أو برباط جغرافي وكان إذا عجز لإيجاد سبب التأثر باللغة الأصل كان يذكر أن هذا كان بسبب عدم معرفة المسلمين لمعاني هذه المفردات مما جعلهم ينسبونها لمكان بعيد وهو توجيه غير مقنع.

وقد ذكر أربعة من هذه المصادر التي نسب لها بعض المفردات لهذا السبب : التركية ، والبربرية ، والزنجية ، والهندية.

والسر في تأليف مثل هذه الموضوعات عند المستشرقين لإثبات أن القرآن من تأليف محمد ـ صلىالله‌عليه‌وسلم ـ جمعه من ثقافات ومعارف ولغات شتى بدافع مصلحة كسب بعض الأنصار كاليهود ، أو تأثرا بسبب المخالطة وهو شأن من يعيش مع قوم لفترة طويلة.

الآن سنقف وقفات مع شبهات هؤلاء المستشرقين[٢] التي دعتهم لمثل هذه الدعوى ونرد عليها بما يفتح الله علينا.

الشبهة الأولى: نزول القرآن الكريم

إن ما تسمونه معجزات من العلوم والمعارف التي اشتمل على مثلها القرآن ما هي إلا آثار لمواهب بعض النابغين من الناس وهذه المواهب وآثارها وجدت ويمكن أن توجد في كل أمة.

الجواب: إنّ مواهب النابغين ونبوغ الموهوبين له وسائل وعوامل وله أشباه معتادة ونظائر في كل أمة وجيل وفي كل عصر ومصر أما المعجزات فلن تجد لها من وسائل ولا عوامل ولن تستطيع أن تصل إلى أشباه معتادة لها ونظائر إلا إذا خرجنا عن نطاق الكون المعروف.

الشبهة الثانية:لو كان الوحي ممكنًا لأوحى الله إلى أفراد البشر عامة ولم يختص به شرذمة قليلين يجعلهم واسطة بينه وبين خلقه.

الجواب:أن عامة البشر ليس لديهم استعداد لتلقي الوحي عن الله لا مباشرة ولا بواسطة الملك لأنهم لن يستطيعوا رؤيته إلا إذا ظهر في صورة إنسان فقضت الحكمة أن يجعل الله من بني الإنسان طائفة لها استعداد خاص يؤهلها لأن تتلقى عن الله الوحي. وسلحهم بالآيات التي تطمئن الناس على أنهم رسل. واختصاص بعض الناس بالوحي والنبوة فيه نوع من الاختبار والابتلاء.

الشبهة الثالثة: يقولون إن محمدًا كان عصبيًّا حاد المزاج وكان مريضًا بما يسمونه (الهيستريا) فالوحي الذي كان يزعمه ما هو إلا أعراض لتلك الحال التي أصيب بها.

الجواب:أن هذه فرية تدل على جهلهم الفاضح بمحمد - ﷺ - فالمعروف عنه بشهادة التاريخ الصحيح والأدلة القاطعة أنه كان وديعًا صبورًا حليمًا، شجاعًا مقدامًا، سليم الجسم صحيح البدن.

أما مرض (الهستيريا) الذي يقولون عنه فهو داء عصبي عضال أكثر إصاباته في النساء، وأعراضه معروفة، فهل يتفق هذا المرض مع ما هو معروف عن النبي - ﷺ - وقيادته لأمة أصبحت بعد قرن واحد من الزمان أمة الأمم وصاحبة العلم وربة السيف والقلم.

الشبهة الرابعة : يقولون إنكم تستدلون على الوحي بإعجاز القرآن وتستدلون على إعجاز القرآن بما فيه من أسرار البلاغة ونحن لا ندرك تلك الأسرار ولا نسلمها فلا نسلم الوحي المبني عليها.

الجواب: إن للقرآن نواحي أخرى في الإعجاز غير ما يحويه من أسرار البلاغة والبيان، منها ما يحويه من المعارف السامية والتعاليم العالية في العقائد والعبادات والتشريعات المدنية والجنائية

والحربية والمالية،... وغيرها، وإذا ما قارنت بينها وبين ما يوجد على وجه الأرض من سائر التشريعات توضح ذلك الإعجاز الباهر وخصوصًا أنها جاءت من رجل أمي نشأ وعاش وشب وشاب وحي ومات بين أمة أمية كانت لا تدري ما الكتاب ولا الإيمان. كذلك أنباء الغيب التي تحدث بها القرآن من الفتوحات والانتصارات التي بشر بها المسلمون وقد تحققت كلها، وكذلك تحديه اليهود بأن يتمنوا الموت وهو أمر خاص بهم. ومع ذلك لم يستطيعوا.. كل ذلك يدل على إعجازه.

ثانيا : أول ما نزل وآخر ما نزل من القرآن:

الشبهة الأولى :قالوا: لماذا لا تكون آية المائدة آخر ما نزل من القرآن؟ وهي قوله سبحانه: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣]، مع أنها صريحة في أنها إعلام بإكمال الله لدينه في ذلك اليوم المشهود الذي نزلت فيه وهو يوم عرفة في حجة الوداع بالسنة العاشرة من الهجرة. والظاهر أن إكمال دينه لا يكون إلا بإكمال نزول القرآن وإتمام جميع الفرائض والأحكام.

الجواب: إن هناك قرينة تمنعنا من هذا الفهم وهي أن هناك قرآنًا نزل بعد الآية السابقة حتى بأكثر من شهرين وأن النبي عاش بعدها تسع ليال فقط.

وقيل : الأقرب أن يكون معنى إكمال الدين هو إنجاحه وإقراره على الدين كله ولو كره الكافرون.

ثالثا :نزول القرآن على سبعة أحرف:

الشبهة الأولى: يقولون إن أحاديث نزول القرآن على سبعة أحرف تثبت الاختلاف في القرآن مع أن القرآن نفسه يرفع الاختلاف عن نفسه إذ يقول: ﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢]، وذلك تناقض ولا ندري أيهما يكون الصادق.

الجواب:إن الاختلاف الذي تثبته تلك الأحاديث غير الاختلاف الذي ينفيه القرآن، فالأحاديث الشريفة تثبت الاختلاف بمعنى التنويع في طرق أداء القرآن والنطق بألفاظه في دائرة محدودة لا تعدو سبعة أحرف وبشرط التلقي فيها كلها عن النبي.

أما القرآن فينفي الاختلاف بمعنى التناقض والتدافع بين معاني القرآن وتعاليمه مع ثبوت التنويع في وجوه التلفظ والأداء السابق.

الشبهة الثانية:إن هذا الاختلاف في القراءات يوقع في شك وريب من القرآن خصوصًا إذا لاحظنا في بعض الروايات معنى تخيير الشخص أن يأتي من عنده باللفظ وما يرادفه. أو باللفظ وما لا يضاده في المعنى.

الجواب:إن اختلاف القراءات لا يوقع في شك ولا ريب ما دام الكل نازلًا من عند الله، وأما هذه الروايات التي اعتمدت عليها الشبهة فلا نسلم أنه يفهم منها معنى تخيير الشخص أن يأتي من تلقاء نفسه باللفظ وما يرادفه بل قصارى ما تدل عليه هذه الروايات أن الله تعالى وسع على عباده خصوصًا في مبدأ عهدهم بالوحي أن يقرءوا القرآن بما تلين به ألسنتهم، وكان من جملة هذه التوسعة القراءة بمترادفات من اللفظ الواحد للمعنى الواحد مع ملاحظة أن الجميع نازل من عند الله. يدل على ذلك قوله ﷺ: «هكذا أنزلت». وقوله تعالى لرسوله جوابًا لمن سأله بتبديل القرآن: ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾

شبه المستشرقين حول الوحي : موثوقية النص القرآني وشبههم حوله

المبحث الأول :شبه المستشرقين حول الوحي :

المسألة الأولى : الشبه على ظاهرة الوحي

عجزت عقول المستشرقين ومختبراتهم العلمية أن توصلهم إلى كنه ظاهرة الوحي. فاختلفوا في هذه الظاهرة على أقوال متباينة مجافية للحق ، مجانبة للصواب ، وكل ذلك سببه تصورهم ظاهرة الوحي في النصرانية وقياس ظاهرة الوحي في الإسلام عليها.

وسأجمل أقوالهم في ظاهرة الوحي في نقاط محدودة.

١ ـ الوحي النفسي ، والإلهام السمعي.

٢ ـ بتأثير انفعالات عاطفية.

٣ ـ لأسباب طبيعية عادية كباعثة النوم (التنويم الذاتي).

٤ ـ تجربة ذهنية فكرية.

٥ ـ كحالة الكهنة والمنجمين.

٦ ـ حالة صرع وهستيريا.

وغير ذلك من الأقوال التي فاقت سذاجة الجاهلين الأوائل.

الشبهة الأولى :

الوحي النفسي :قالوا : نحن لا نشك في صدق محمد في خبره عما رأى وسمع ولا نشك في كونه مصلحا اجتماعيا ، وعبقريا فذا ، وإنما نقول أن منبع ذلك إلهام من نفسه وليس فيه شيء جاء من عالم الغيب الذي يقال : إنه وراء عالم المادة والطبيعة الذي يعرفه جميع الناس. فإن هذا الغيب شيء لم يثبت عندنا وجوده ، كما أنه لم يثبت عندنا ما ينفيه ، ويلحقه بالمحال.

الجواب :لما كان الوحي هو الأساس الذي يترتب عليه جميع حقائق الإسلام بعقائده وتشريعاته ، وهو المدخل للتصديق بكل ما جاء به الرسول ـ صلىاللهعليهوسلم ـ من إخبارات غيبية وأوامر تشريعية من أجل هذا وغيره اهتم أعداء الإسلام بالتلبيس والتشكيك في حقيقة الوحي الإلهي ليشككوا المسلمين في دينهم ويحولوا بين غير المسلمين وخاصة الأوربيين وبين الإسلام ، لذا زعموا أن الوحي ناتج عن سبب من هذه الأسباب التي لخصناها من الشبه آنفة الذكر.

وقد قامت الأدلة النقلية والعقلية على بطلان هذه المزاعم. فمن الأدلة النقلية :

١ ـ قوله تعالى : (وَما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحى). وقال تعالى : (إِنَّا أَوْحَيْنا إِلَيْكَ كَما أَوْحَيْنا إِلى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ).

٢ ـ ووصفه ـ صلىاللهعليهوسلم ـ لكيفية إتيان الوحي إليه. كما ورد في حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ عند ما سأله الحارث بن هشام : «أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده علي فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال وأحيانا يتمثل لي الملك رجلا فيكلمني فأعي ما يقول ..» الحديث

وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : «أول ما بدئ به رسول الله ـ صلىاللهعليهوسلم ـ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم ..» الحديث

أما الأدلة العقلية فكثيرة كذلك. ولكني سأقتصر على رد عام على فريتهم هذه.

فالمستشرقون بنوا هذه الشبهة على مقدمات مبناها أن فكرة الوحي تكونت نتيجة تشبع العقل الباطن بما في البيئة من ثقافات وعقائد وغير ذلك مما جعل نفسه الصافية تفيض بما فيها من ذخائر وقد فصلت القول في كل ما زعموه كركائز للوحي النفسي من ثقافة يهودية ونصرانية ووثنية ومجوسية وزرادشتية وغير ذلك في فصل المصادر المزعومة للقرآن الكريم فليرجع إليها هناك.

وعلى إثر سقوط هذه المقدمات تسقط النتيجة التي توصلوا لها في تفسير ظاهرة الوحي أنها (وحي نفسي) أو ناتج عن رياضات روحية وتفكير طويل كإلهام الواصلين ، وكشف العارفين

ولكن لا بد من كلمة عامة على هذه الشبهة ، فالناظر لهذا الدين وحقيقته يجده فريدا متميزا صافيا بكل ما جاء به من عقائد وشرائع عما كان موجودا في وسطه الذي كان يعيش فيه ـ عليه الصلاة والسلام

فقد جاء هذا الدين عاما شاملا لكل نواحي الحياة ، سهلا في عبادته ، دقيقا في معاملاته ، رادعا في حدوده ، فذا في نظمه الاقتصادية والسياسية وغيرها ، عظيما في أخلاقه وآدابه ، إلى غير ذلك من المزايا والفضائل أكل هذه العقائد والنظم والتشريعات كانت مذكورة مدخرة في نفس محمد ـ

صلىاللهعليهوسلم ـ ابن البيئة المختلفة العقائد ، والفقيرة الموارد ، المختلفة الأنظمة ، المضطربة الأخلاق والآداب؟.

الشبهة الثانية : زعم نولديكه أن ظاهرة الوحي كانت بسبب تأثير النوبات الانفعالية الطاغية التي كانت تسيطر عليه مما كان يدعو محمدا ـ صلىاللهعليهوسلم ـ إلى الشعور بأنه تحت تأثيرات إلهية، حيث قال :

[كانت نبوة محمد نابعة من الخيالات المتهيجة والإلهامات المباشرة للحس أكثر من أن تأتي من التفكير النابع من العقل الناضج. فلو لا ذكاؤه الكبير لما استطاع الارتقاء على خصومه .. مع هذا كان يعتقد أن مشاعره الداخلية قادمة من الله بدون مناقشة]

الجواب : هذه الشبهة لها قرب من الشبهة الأولى وتدل على تجن ، وسوء فهم واضح ، ويرد ذلك الوقوف على سيرته ـ صلىاللهعليهوسلم ـ وعلى كيفية نزول الوحي عليه.

فالواقف على ذلك يجد أن الوحي كان يأتي رسول الله - صلىاللهعليهوسلم -في أوقات عدة وبأشكال مختلفة فقد كان يأتيه في ظروف اعتيادية ، ويقطعه في ظروف عصيبة وهو بأشد الحاجة إليه. فكل ذلك يدل على أن الوحي خارج عن ذاته وليس له فيه أدنى تدخل. فها هم المنافقون يخوضون في عرضه الشريف في قصة الإفك التي افتريت ضد زوجته المصون ويشتد الأمر عليه ويتمنى لو يجد شيئا يقوله ليبرئ زوجته أو يثبت ما يقولونه فيرتاح مما هو فيه ولكن الأمر ليس بيده ، ولم يستطع أن يقول شيئا حتى نزل من صاحب هذا القرآن وهو الله سبحانه ما يبرئ هذه الزوجة الطاهرة النقية ويرد كيد المنافقين.

وما حصل معه في سؤال المشركين له عن ثلاثة الأسئلة المذكورة في قصة أهل الكهف وقد ذكرت القصة بطولها أثناء ردي على الشبهة الأولى مما بينت أن الرسول ـ صلىاللهعليهوسلم ـ لم يستطع أن يأتيهم بجواب حتى خاض المشركون في أمر الرسول ـ صلىاللهعليهوسلم ـ ما طاب لهم من قول حتى نزلت الإجابة من السماء.

كل ذلك يؤكد أن الوحي أمر خارج عن إرادة نبينا محمد ـ صلىاللهعليهوسلم ـ صلىاللهعليهوسلم ـ ويخاطبه بصوت قوي يشبه صوت الجرس يفهمه هو دون غيره.

الشبهة الثالثة : زعم بعضهم أن منشأ الوحي من أسباب طبيعية عادية كباعثة النوم أو ما سماه «واط» (التنويم الذاتي)

الجواب : هذه فرية من جملة مفترياتهم حيث إن البعد شاسع بين الوحي وبين عارض السبات الطبيعي الذي يعتري المرء حيث إن ظاهرة الوحي كانت تعتريه قائما أو قاعدا ، أو سائرا ، أو

راكبا ، وبكرة أو عشيا ، ليلا أو نهارا ، وفي أثناء حديثه مع أصحابه أو مع أعدائه ، وكانت تعتريه فجأة وتزول عنه فجأة ، وتنقضي عنه أحيانا في لحظات يسيرة لا بالتدريج الذي يعرض للوسنان. وكانت تصاحبها تلك الأصوات الغريبة التي تشبه صلصة الجرس والتي لا تسمع عند النوم وغيره. فمن هنا يظهر أنها كانت تباين حال النائم في كل أوضاعها وأوقاتها وأشكالها. فقد صور لنا الإمام البخاري ـ رحمه‌الله تعالى ـ بسنده إلى رسول الله ـ صلى‌الله‌عليه‌وسلم ـ

قال الإمام البخاري : فبينما النبي ـ صلى‌الله‌عليه‌وسلم ـ بالجعرانة[٣] ومعه نفر من أصحابه جاءه رجل فقال : يا رسول الله كيف ترى في رجل أحرم بعمرة وهو متضمخ بطيب؟ فسكت النبي ـ صلى‌الله‌عليه‌وسلم ـ ساعة فجاءه الوحي ، فأشار عمر ـ رضي الله عنه ـ إلى يعلى ، وعلى رسول الله ـ صلى‌الله‌عليه‌وسلم ـ ثوب قد أظل به فأدخل رأسه فإذا رسول الله ـ صلى‌الله‌عليه‌وسلم ـ محمر الوجه ، وهو يغط. ثم سري عنه. فقال : أين الذي سأل عن العمرة؟ فأتي برجل فقال : اغسل الطيب الذي بك ثلاث مرات ، وانزع عنك الجبة ، واصنع في عمرتك كما تصنع في حجتك .

فهذا يبين أن ظاهرة الوحى ليس لها تحضير مسبق من قبل رسول الله ـ صلى‌الله‌عليه‌وسلم ـ كما زعم ذلك «واط» بل هي ظاهرة خارجة عن ذاته الشريف.

م/٦: جمع القرآن الكريم وشبههم حوله

أ ـ تسمية الجمع تنقيحا :

أطلق «بلاشير» على عملية جمع القرآن الكريم تنقيحا .

الجواب : إنّ هذه التسمية من المستشرقين مقصودة وذلك ليوحوا أن القرآن الكريم كأي جهد بشري قابل للزيادة والنقصان والتبديل والتغيير للوصول به لما هو أفضل كما هو في المقياس البشري. والذي دفعهم لمثل هذا اللون من التفكير ما نقل من جهود الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ وفي عهد التابعين من إعادة كتابة القرآن الكريم وجمعه حفاظا على النص القرآني من التحريف والتغيير والنقص والزيادة ، واختلاف اللهجات فيه فظنوا أن ذلك كان من باب التنقيح للنص القرآني والتعديل فيه.

ولكن الله سبحانه قد تكفل حفظ هذا القرآن الكريم من أي تبديل وتغيير أو نقص وزيادة فأودع حفظه في صدور المسلمين ، وفي السطور قال تعالى : (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ) فلم يدخله ما

زعمه «بلاشير» التنقيح بمفهومهم فهو ما زال غضا طريا كما نزل ، وسنذكر فيما يلي أهم النقاط التي أبرزوها حول جمع القرآن الكريم ، وانطلقوا منها لبناء شبهاتهم.

أ ـ المرحلة الأولى من الجمع القرآني وشبهاتهم حولها :

تاريخ جمع القرآن الكريم :

حاول بعض المستشرقين مثل «بلاشير» و «كازانوفا» التشكيك في تاريخ جمع القرآن الكريم وأول من جمعه فبعضهم اعتبر أول جامع له رسول الله ـ صلىاللهعليهوسلم ـ وبعضهم اعتبره أبو بكر ، عمر ، سالم ، عثمان ، علي ، الحجاج .

الجواب : مر القرآن الكريم بثلاث مراحل أساسية وهي :

أ ـ الجمع النبوي للقرآن الكريم.

ب ـ جمع أبي بكر ـ رضي الله عنه.

ج ـ جمع عثمان ـ رضي الله عنه.

والجمع له معنيان :

أ ـ يطلق تارة ويراد به حفظه وتقييده في الصدور. وأحيانا يراد به الكتابة في الصحف والسطور.

ب ـ والمعنى الثاني وهو المقصود في مراحل الجمع الثلاث الآنفة الذكر.

المسألة الأولى : المرحلة الأولى : الجمع فى عهد الرسول ـ صلىاللهعليهوسلم ـ :

أثار المستشرقون على هذه المرحلة عدة شبهات منها :

الشبهة الأولى :

أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يجمع القرآن بنفسه ، ولم يأمر أحدا بجمعه وإنما كان ذلك بجهد شخصي من بعض الصحابة وفي بعض المناسبات ، وأن الجمع الفعلي كان في المدينة المنورة بعد هجرته ـ صلىاللهعليهوسلم ـ تأثرا باليهود.

وقد استدلوا على ذلك بعدة أدلة منها :

١ ـ رواية عبد الله بن عمر رضي الله عنه أنه قال : «لا تجعلوا أحدكم يقول : لقد حصلت على مجمل القرآن ، فكيف يتسنى له أن يعرف ما ذا كان ذلك المجمل؟ إن كثيرا من القرآن قد ذهب. فليقل بدلا من ذلك : لقد حصلت على ما ظل موجودا».

٢ ـ رواية منسوبة لزيد بن ثابت رضي الله عنه حيث قال فيها :

«لقد مات النبي ـ صلىاللهعليهوسلم ـ ولم يكن قد تم جمع القرآن في أي مكان» .

الجواب :يحمل الجمع النبوي في عهده ـ صلىاللهعليهوسلم ـ معنيين : الحفظ في الصدور : وحفظ السطور ، أما الأول : فيدل عليه قوله تعالى : (إِنَّ عَلَيْنا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ) فقد ضمن حفظ هذا القرآن في صدره ـ عليه الصلاة والسلام ـ وصدر مجموعة من صحابته فإن كان عدد الحفظة لكل ما كان ينزل بالعشرات ، فإن حفظة الأجزاء منه والسور والآيات يعدون بالمئات ، وكان عددهم في ازدياد باستمرار لما لهذا القرآن عند المسلمين من قدسية ومحبة ، ولأنهم كانوا يعتبرونه من أعظم الطرق التي تقربهم إلى الله سبحانه وتعالى.

أما حفظه في السطور فالمعروف أن رسول الله ـ صلىاللهعليهوسلم ـ كان أميا لم يكتب بيده الشريفة شيئا ولكنه كان قد اتخذ كتبة لكافة أغراضه واحتياجاته للوحي والمراسلات والخطابات بلغوا الأربعين ونيفا ، فكان إذا نزل شيء من القرآن على رسول الله ـ صلىاللهعليهوسلم ـ استدعى بعض كتبته وأمر بتسجيلها ثم حفظها لبعض صحابته وكانت كتابتهم للقرآن الكريم على اللخاف ، والعسب ، والأكتاف ، والأقتاب ، وقطع الأديم.

أما الأدلة التي استدلوا بها فلنا عليها تعليق.

هذه الروايات مما استدل بها بعض الفرق على نقصان القرآن الكريم وإسقاط شيء منه فرواية عبد الله بن عمر إن صحت الرواية فالمراد بها النهي عن حفظ كل ما نزل من القرآن ناسخه ومنسوخه ، لأن من القرآن ما نسخت تلاوته بعد نزوله فالواجب أن يقول حفظت من القرآن غير منسوخ التلاوة.

وأيدوا أدلتهم المدعاة بدليل آخر وهو قولهم : «ما عندنا إلا كتاب الله وما في هذه الصحيفة» فالمقصود بالصحيفة هنا الأحكام التي كتبها عن النبي ـ صلىاللهعليهوسلم ـ.

ولم ينف أن عنده أشياء أخرى من الأحكام التي لم يكن كتبها أو أراد : ما ترك مما يتعلق بالإمامة ، أي لم يترك شيئا يتعلق بأحكام الإمامة إلا ما هو بأيدي الناس. وهذا رد صريح على دعاوي الرافضة ومزاعم المستشرقين الذين تلقفوا إفكهم هذا وهو حذف شيء من القرآن الكريم لمصلحة تخصهم ، والشاهد في قوله : «ما ترك إلا ما بين الدفتين» أي من القرآن الذي يتلى لأن ما سواه مما نسخت تلاوته في حياة النبي ـ صلىاللهعليهوسلم ـ

الرواية الثانية :

التي استدلوا بها على عدم جمع القرآن في عهده الشريف الرواية المنسوبة لزيد بن ثابت وهي قوله :«لقد مات النبي ـ صلىاللهعليهوسلم ـ ولم يكن قد تم جمع القرآن الكريم في أي مكان».

فقد ذكرها السيوطي في إتقانه ونقل توضيح الخطابي لمقصودها حيث قال : «إنما لم يجمع ـ صلى‌الله‌عليه‌وسلم ـ القرآن في المصحف لما كان يترقبه من ورود ناسخ لبعض أحكامه أو تلاوته ، فلما انقضى نزوله بوفاته ألهم الله الخلفاء الراشدين ذلك وفاء بوعده الصادق بضمان حفظه على هذه الأمة فكان ابتداء ذلك على يد الصديق بمشورة عمر» .

أما ما أخرجه الإمام مسلم من حديث أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ـ صلى‌الله‌عليه‌وسلم ـ «لا تكتبوا عني ، ومن كتب عني غير القرآن فليمحه وحدثوا عني ولا حرج ، ومن كذب علي ـ قال همام : أحسبه قال : ـ متعمدا ـ فليتبوأ مقعده من النار» .

قال «القاضي» : كان بين السلف من الصحابة والتابعين اختلاف كثير في كتابة العلم. فكرهها كثيرون منهم ، وأجازها أكثرهم. ثم أجمع المسلمون على جوازها وزال ذلك الخلاف. واختلفوا في المراد بهذا الحديث الوارد في النهي.

فقيل : هو في حق من يوثق بحفظه ويخاف اتكاله على الكتابة إذا كتب. وتحمل الأحاديث الواردة بالإباحة على من لا يوثق بحفظه كحديث «اكتبوا لأبي شاة» .. وحديث أن ابن عمرو بن العاص كان يكتب ولا أكتب .. وغير ذلك من الأحاديث.

وقيل : إن حديث النهي منسوخ بهذه الأحاديث. وكان النهي حيث خيف اختلاطه بالقرآن فلما أمن ذلك ؛ أذن في الكتابة.

وقيل : إنما نهى عن كتابة الحديث مع القرآن في صحيفة واحدة لئلا يختلط فيشتبه على القارئ.

فالنهي يكون عن كتابة مخصوصة وبصفة مخصوصة. أما القرآن الكريم فالشواهد على كتابته وملازمتها للحفظ واردة بأحاديث كثيرة منها حديث زيد نفسه والبراء بن عازب ـ رضي الله عنهما ـ في صحيح البخاري قال : «لما نزلت لا يستوي القاعدون من المؤمنين قال النبي ـ صلى‌الله‌عليه‌وسلم ـ ادعوا فلانا ـ فجاءه ومعه الدواة واللوح أو الكتف فقال : اكتب «لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله» وخلف النبي ـ صلى‌الله‌عليه‌وسلم ـ ابن أم مكتوم. فقال : يا رسول الله أنا ضرير فنزلت مكانها (لا يَسْتَوِي الْقاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ)

وزيد نفسه هو الذي قال : «كنا عند رسول الله ـ صلى‌الله‌عليه‌وسلم ـ نؤلف القرآن من الرقاع ..».

وهذا نص صريح يدل على أن القرآن كان مكتوبا على أشياء متعددة وفي أماكن مختلفة ولكنه لم يكن مرتب السور ولكنه مرتب الآيات بدليل رواية عثمان ـ رضي الله عنه ـ قال : «كان رسول الله ـ صلى‌الله‌عليه‌وسلم ـ مما يأتي عليه الزمان ، وهو تنزل عليه السور ذوات العدد ، فكان إذا نزل عليه

الشيء منه دعا بعض من كان يكتب فيقول : «ضعوا هذه الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا»

وإذا نزلت عليه الآية يقول : «ضعوا هذه الآية في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا ...» الحديث.

فمن مجموع الروايات أن الكتابة كانت منتشرة في عهده ـ صلىاللهعليهوسلم ـ وعلى رأس ذلك القرآن الكريم فكان حفظ الصدور ملازما لحفظ السطور في كل الأحوال مع أن الأصل الحفظ أما الكتابة فكانت للتوثيق ولكن لما كان بعض الصحابة يكتبون مع القرآن غيره في صحيفة واحدة نهوا عن ذلك لئلا يختلط مع القرآن سواه فلما أمن الاختلاط أذن لمن كان عنده الحرص والرغبة في الكتاب أو كان ضعيف الحفظ أن يكتب بنفسه أو يكتب له شيء من السنن والأحكام كنصوص شرعية يجب معرفتها والعمل بها.

الشبهة الثانية :

أ ـ عدد الحفظة للقرآن الكريم.

ب ـ ونزاهة الكتبة وشبههم حولهم.

أ ـ عدد الحفظة للقرآن الكريم :

أثار كثير من المستشرقين شكوكا حول عدد الحفظة ليصلوا بذلك لعدم رواية القرآن بالتواتر وأن قلتهم أدى إلى ضياع شيء من القرآن بموت بعضهم وعلى رأسهم «بلاشير» الذي زعم أنه حقق المسألة ووجد أن عددهم سبعة وفي قول آخر : إنهم تسعة أشخاص.

أما «شيفالي» فذكر أنهم اثنان فقط .

مستندين على روايات ذكرت بعض الحفظة كما في طبقات ابن سعد وهم :

١ ـ ابن مسعود.

٢ ـ سالم.

٣ ـ معاذ بن جبل.

٤ ـ أبي بن كعب.

٥ ـ زيد بن ثابت.

٦ ـ أبو يزيد.

٧ ـ أبو الدرداء.

الجواب :كان النبي ـ صلىاللهعليهوسلم ـ ينزل عليه القرآن الكريم فيقرؤه على صحابته بتؤدة وتمهل كي يحفظوه ويفهموه «كنا نحفظ العشر فلا نتجاوزها حتى نحفظها ونعمل بها» قال عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ : كان رسول الله ـ صلىاللهعليهوسلم ـ إذا نزل عليه الوحي سمع عند وجهه كدوي النحل فأنزل عليه يوما فمكث ساعة فسري عنه فاستقبل القبلة ورفع يديه وقال : «اللهم زدنا ولا تنقصنا وأكرمنا ولا تهنا ، وأعطنا ولا تحرمنا ، وآثرنا ولا تؤثر علينا ، وارضنا وارض عنا» ثم قال : أنزل علي عشر آيات من أقامهن دخل الجنة ثم قرأ (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ) حتى ختم عشر آيات .

وقد جعل الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ القرآن الكريم في المقام الأول في العناية والاهتمام فتنافسوا في حفظه وفهمه ، فكانوا يكثرون من قراءته وترداده آناء الليل وأطراف النهار.

عن أبي موسى قال : قال رسول الله ـ صلىاللهعليهوسلم ـ «إني لأعرف أصوات رفقة الأشعريين بالقرآن ، حين يدخلون بالليل ، وأعرف منازلهم من أصواتهم ، بالقرآن بالليل ، وإن كنت لم أر منازلهم حين نزلوا بالنهار ..» .

وكان الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ يتفاخرون بحفظ شيء من سور القرآن الكريم من فم رسول الله ـ صلىاللهعليهوسلم ـ وكان اعتمادهم في الحفظ على التلقي والسماع من الرسول ـ صلىاللهعليهوسلم ـ فكان من خصائص هذه الأمة حفظهم كتاب ربهم في صدورهم فوضعوا «أناجيلهم في صدورهم» فلا عجب والحال كما سمعت أن يحفظه الجم الغفير من الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ فكان على رأسهم الخلفاء الأربعة وكان منهم : حذيفة بن اليمان ، وسالم مولى أبي حذيفة ، وعبد الله بن مسعود ، وأبو هريرة ، وعبد الله ابن عباس ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وأبوه. وزاد بعضهم طلحة ، وسعدا ، ومعاوية بن أبي سفيان ، وعبد الله بن السائب قارئ مكة ، وغيرهم من المهاجرين.

وقد ذكرت هذا الجم الغفير من الصحابة لأنقض مزاعم كل من «بلاشير» و «شيفالي» و «نولديكه» حيث زعم بعضهم أن إيداع الحفظ لحافظة الصحابة أدى لاضطراب النص القرآني ضد المرتدين ، خاصة إذا علم أنه مات من القراء في معركة اليمامة «خمسمائة من الصحابة ، وسبعون من القراء في يوم «بئر معونة» كما جاء في صحيح البخاري عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال : «بعث النبي ـ صلىاللهعليهوسلم ـ سبعين رجلا لحاجة يقال لهم : القراء. فعرض لهم حيان من بني سليم رعل وذكوان عند بئر يقال له : «بئر معونة» فقال القوم : والله ما إياكم أردنا ، إنما نحن

مجتازون في حاجة للنبي ـ صلىاللهعليهوسلم ـ فقتلوهم. فدعا النبي ـ صلىاللهعليهوسلم ـ عليهم شهرا في صلاة الغداة ، وذلك بدء القنوت وكنا نقنت».

فالروايات التي استنتج منها «بلاشير» أن العدد محصور بسبعة أو تسعة لم يقصد منها الحصر كقوله ـ صلىاللهعليهوسلم ـ :

«خذوا القرآن من أربعة : من ابن أم عبد ـ فبدأ به ـ ومعاذ بن جبل ، وأبي بن كعب ، وسالم مولى أبي حذيفة».

ولما تقدم من الأحاديث في أعلاه نخلص الى :

١ ـ أنه لم يجمع جميع القرآن عن رسول الله ـ صلىاللهعليهوسلم ـ ويأخذه من فيه تلقيا غير تلك الجماعة فإن أكثرهم أخذوا بعضه عنه ، وبعض القرآن عن غيره.

٢ ـ أنه لم يجمعه على عهد رسول الله ـ صلىاللهعليهوسلم ـ

٣ ـ أنه لم يجمعه مكتوبا لنفسه غير هؤلاء ..

أما الروايات التي اعتمد عليها المستشرقون وعلى رأسهم «بلاشير» في تحديد العدد بسبعة أو تسعة هما روايتان عن أنس ـ رضي الله عنه ـ وبعض الروايات التي ذكرها ابن أبي داود في كتابه المصاحف.

فالرواية الأولى عن أنس من طريق ثمامة : «مات النبي ـ صلىاللهعليهوسلم ـ ولم يجمع القرآن غير أربعة : أبو الدرداء ، ومعاذ بن جبل ، وزيد بن ثابت ، وأبو زيد ، قال : ونحن ورثناه».

والرواية الثانية رواها عن أنس من طريق قتادة حيث سئل عن من جمع القرآن على عهد النبي ـ صلىاللهعليهوسلم ـ قال : أربعة كلهم من الأنصار : أبي بن كعب ، ومعاذ بن جبل ، وزيد بن ثابت ، وأبو زيد».

فالملاحظ أن رواية ثمامة خالفت رواية قتادة من وجهين :

أ ـ التصريح بصيغة الحصر في الأربعة.

ب ـ ذكر أبي الدرداء بدلا من أبي بن كعب.

فعلى هذا فالروايتان مضطربتان، فلا يؤخذ بهما .

ب ـ نزاهة كتبة الوحي :

استغل المستشرقون حادثة ردة عبد الله بن أبي السرح ليشككوا في نزاهة كتبة القرآن الكريم حتى زعم بعضهم أنه زاد في القرآن بما يزيد عن خمس حجم المنزل. كما زعم «كازانوفا» أن الأرض لفظت كاتبا آخر ليوحي أن عدم النزاهة لم تقتصر على واحد..

الجواب : إن عمل عبد الله بن أبي السرح لم يتكرر من أحد سواه ، ولم يثبت لنا التاريخ ، ولا كتب السير أن واحدا فعل صنيعه على عكس مزاعم المستشرقين. ورسول الله ـ صلىاللهعليهوسلم ـ لم يترك هذه القضية دون اهتمام بل لما كشف له إساءة عبد الله بن أبي السرح وحكم بكفره أوقفه عن كتابة الوحي وأهدر دمه لبشاعة فعله وسوء أدبه مع خالقه ، وظنه السيئ برسول الله ـ صلىاللهعليهوسلم ـ حتى فر من المدينة المنورة إلى مكة المكرمة ، ولم يشفع له إلا صدق توبته وحسن ندامته التي كانت بإلحاح من أخيه في الرضاعة عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ ورسول الله ـ صلىاللهعليهوسلم ـ لم يكن ليبقي أي تغيير حصل في كتاب الله سبحانه وإن أبقى شيئا فيكون لجواز إنزال القرآن بما سبقت به يد الكاتب كموافقات عمر لربه عزوجل.

م/٧ :- جمع القرآن في زمن الصحابة رضي الله عنهم والشبه الموجه إليهم

المرحلة الثانية من الجمع القرآني وشبههم حولها :

جمع القرآن الكريم في عهد خليفة رسول الله ـ صلىاللهعليهوسلم ـ أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ أثار المستشرقون مجموعة من الشبهات على الجمع في عهد أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ.

الشبهة الأولى :

ذكر «بلاشير» عدة أقوال في أول جامع للقرآن. زعم «بلاشير» : أن الجمع بدأ في عهد أبي بكر ، وتم في عهد عمر ، وقال : بل هو أول جامع للقرآن عمر نفسه. وقول آخر الجامع هو سالم. وقول آخر : إن أول من جمع هو علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ وزعم «كازانوفا» أن الجمع تم في عهد الحجاج .

الجواب : لما تولى الخلافة أبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ بعد وفاة رسول الله ـ صلىاللهعليهوسلم ـ كان أول عمل قام به محاربة المرتدين. فلما وقعت «موقعة اليمامة» سنة اثنتي عشرة للهجرة استحر القتل في الصحابة ومات من حفاظ القرآن الكريم خلق كثير قيل : خمسمائة ، وقيل : سبعمائة. فخشي الفاروق عمر ـ رضي الله عنه ـ أن يكثر القتل في القراء في بقية المواطن. وربما يضيع شيء من القرآن بموتهم ، لذا أشار عمر الفاروق على أبي بكر ـ رضي الله عنهما ـ أن يجمع القرآن في مكان واحد فلما رأيا المصلحة وقواعد الدين تدعو لذلك ، أوكلا أمر جمعه لزيد بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ

الشبهة الثانية : دافع أبي بكر للجمع :

زعم بعض المستشرقين أن الدافع لأبي بكر ـ رضي الله عنه ـ في جمع القرآن كان لغرض خاص به وهو أن لا يكون أقل من بعض الصحابة الذين كانوا يملكون مصحفا خاصا بهم ولم يكن هو يملك ذلك

الجواب : أن الجمع لم يكن ابتداء من أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ بل كان بإشارة من عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ وقد ذكرت رواية البخاري أن أبا بكر تمنع في بادئ الأمر خوفا من أن يفعل شيئا لم يفعله رسول الله ـ صلىاللهعليهوسلم ـ لذا قال لعمر : (.. كيف تفعل شيئا لم يفعله الرسول ـ صلىاللهعليهوسلم ..) قال ابن بطال مبينا سبب تمنع أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ وتمنع زيد بادئ الأمر : لأنهما لم يجدا رسول الله ـ صلىاللهعليهوسلم ـ فعله فكرها أن يحلا أنفسهما محل من يزيد احتياطه للدين على احتياط الرسول ـ صلىاللهعليهوسلم ـ وزال هذا التحرج عند ما أقنعهما عمر ـ رضي الله عنه ـ بفائدة ذلك : وهو خشية أن يتغير الحال في المستقبل إذا لم يجمعا القرآن فيصير إلى الخفاء بعد الشهرة .

فالدافع إذا خوفه من ضياع شيء من القرآن الكريم بموت حفظته في معارك الإسلام أو تلف شيء من القطع التي كتب عليها القرآن مع مر السنين. لا كما زعم بعض المستشرقين وعلى رأسهم «واط» و «بلاشير» أن الدافع كان مباهاة من أبي بكر ليتساوى مع من عنده نسخة خاصة به من هذا المصحف.

المرحلة الثالثة من الجمع :الجمع في عهد عثمان ـ رضي الله عنه ـ ورد الشبهات التي أثيرت عليه.

الشبهة الأولى :

زعم «بلاشير» أن دافع عثمان لجمع القرآن الكريم كان دافعا ارستقراطيا ، ولمصلحة الطبقة المكية الارستقراطية التي كان يمثلها .

الجواب : هذه الشبهة المزعومة من جملة أباطيلهم وتهمهم التي لا تقوم على دليل علمي؛ لأن الروايات الصحيحة أكدت سلامة نوايا عثمان في جمعه ، فقد روى البخاري في صحيحه بسنده إلى أنس بن مالك : «أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان ، وكان يغازي أهل الشام في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق ، فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة فقال حذيفة لعثمان : يا أمير المؤمنين ، أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى ، فأرسل عثمان إلى حفصة

أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك. فأرسلت بها حفصة إلى عثمان ، فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها من المصاحف. وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة : إذا اختلفتم في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنما نزل بلسانهم ، ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف رد عثمان الصحف إلى سيدتنا حفصة ، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق»

فالدافع لعثمان إذن لم يكن حاجة شخصية في نفسه ولم يكن لنزعته الارستقراطية كما زعم «بلاشير» وإنما كان بسبب اختلاف الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ في قراءة القرآن حسب تعليم معلميهم حسب الحرف الذي تلقوه من رسول الله ـ صلىاللهعليهوسلم ـ حتى بلغ بعضهم أن يفضل قراءته على قراءته غيره ، وأن يكفر من لا يقرأ بقراءته.

أما وصف المجتمع الإسلامي بأنه فيه طبقات منها الطبقة الارستقراطية التي كان يمثلها عثمان ـ رضي الله عنه ـ على حد تعبير بلاشير المزعوم فهذا غير صحيح ؛ لأنه فهم ينطبق على المجتمع الغربي لا على المجتمع الإسلامي ؛ لأن المجتمع الإسلامي لا يعرف الطبقية فالناس فيه سواء لا فرق فيه بين الحاكم والمحكوم ، ولا بين عربي ولا عجمي إلا بالتقوى. فالناس فيه سواسية كأسنان المشط.

شبهة لجان الجمع القرآني :

١ ـ القضية الأولى : نزاهة أفراد اللجنة المكلفة بالجمع :

شكك «بلاشير» في اللجان التي أنيط بها مهمة جمع القرآن الكريم وأن تكليفها كان لاعتبارات خاصة لا لكفاءة اللجنة ، كما زعم أن بعض اللجان كانت خيالية ، كما زعم أن بعض اللجان الفرعية بلغت اثني عشر رجلا .

الجواب : إن الاعتبارات الخاصة التي نسبها «بلاشير» للجنة الرئيسية التي كونها عثمان وهي من القرشيين الثلاثة الذين اتهمهم «بلاشير» بأنهم طبقة ارستقراطية : عبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، والمتزلف المتملق زيد بن ثابت ـ على حد تعبيره ـ فما زال «بلاشير» يزعم أن المجتمع المسلم مجتمع ارستقراطي قياسا على المفهوم الغربي مع أنه مجتمع فريد ، لا يفرق فيه بين غني وفقير ، ولا بين حاكم ومحكوم ، وتعاليم الإسلام ما زالت فيه غضة طرية جعلت الناس فيه طبقة واحدة ، طبقة لا يخضعون إلا لله الواحد في كل عباداتهم ،

وأحكامهم ، ومعاملاتهم ، فهم في صلاتهم على بساط واحد يصومون في وقت واحد ، ويحجون في وقت واحد ، وأماكن واحدة ، وعلى هيئة واحدة ، فمن هنا يظهر سوء فهم المستشرقين للمجتمع المسلم وروحه.

أما الدافع لعثمان لتكليف هؤلاء بهذا العمل العظيم فلم يكن لما ذكره «بلاشير» من الاعتبارات ، وإنما لدافع كفاءة أفرادها دون مكانتهم الاجتماعية أو صلاتهم الخاصة.

والذي يؤكد ذلك أن ناقدي عثمان الكثر في عهده لم ينتقدوه بمثل هذه الأقوال المكذوبة بأن استعمال لجنة جمع القرآن كان لدافع نفعي ، أو غرض شخصي ، أو مصاهرة مختلفة. فهؤلاء الصحابة كانوا يتمتعون بصفات تؤهلهم لهذا العمل الجليل ، فهم من صحابة رسول الله ـ صلىاللهعليهوسلم ـ ممن رضي الله عنهم ورضوا عنه ، ومن ثقات الصحابة وأفاضلهم ، وممن شهد لهم بالإيمان والخيرية والورع والإخلاص والأمانة التامة والنزاهة المطلقة.

المحاضرة/٨ : شكل القرآن الكريم ومضمونه وشبههم حوله ـ

١. تقسيم القرآن الكريم إلى ثلاثين جزءا
٢. عناصر السورة وما أثير حولها من شبهات
٣. ترتيب سور القرآن الكريم .

أولا : تقسيم القرآن الكريم إلى ثلاثين جزءا :

زعم المستشرقون أن القرآن الكريم من أجل سهولة تلاوته قسم ثلاثون جزءا لتتلاءم مع عدد أيام شهر رمضان ـ حسب تعبير الموسوعة البريطانية ـ. وقال «بلاشير» : إن تقسيمه كان لمجرد الباعث العملي وتسهيلا لتلاوته في الاحتفالات الدينية .

الجواب : هذا الكلام بجملته بعيد كل البعد عن الدقة والموضوعية فتقسيم القرآن الكريم إلى ثلاثين جزءا كان إجراء متأخرا كثيرا عن نزول القرآن. أما فرضية رمضان ، ونافلة التراويح كان ذلك في عهد الرسول ـ صلىاللهعليهوسلم ـ ولا ريب أن المسلمين كانوا يحفظون القرآن ، ولا يجدون في ذلك صعوبة ولا عسرا قبل أن يجزأ القرآن إلى أجزاء ، وكانوا لا ريب كذلك يصلون التراويح وهي النافلة الرمضانية قبل أن يجزأ القرآن كذلك.

فربط التجزئة بشهر رمضان أو المواسم الدينية بعيدة عن الحقيقة والمنطق والتطبيق العملي ، بل بعيد حتى عن روح هذا الدين لأن اهتمامه دائما بالجوهر لا بالشكليات. والمسلمون مطلوب منهم أن يقرءوا القرآن في صلاتهم وفي صلاة التراويح في رمضان وغيرها من العبادات وأوقات الفراغ بقدر نشاطهم ، وظروف القارئ والمصلين من بعده لأن هذا الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه.

أما تجزئة القرآن لأجزاء ، وأحزاب ، وأرباع ، وسور ، وآيات ، ففي ذلك فوائد كثيرة لا يدركها أمثال هؤلاء المستشرقين وقد ذكرها العلماء في مؤلفاتهم ، من هذه الفوائد التي ذكروها :

١ ـ أن التجزئة للقرآن الكريم يدل على مقدار الاهتمام والعناية التي بذلت لهذا القرآن الكريم فيزداد المسلم له طمأنينة. وهي خاصية امتازت بها هذه الأمة في اعتنائها بكتاب ربها عزوجل بعكس الأمم السابقة.

٢ ـ تعرف المسلم على بداية كل جزء ونهايته ، وأنصاف القرآن وأرباعه .. إلخ وهذا تسهيل عليه لحفظه فيزداد المسلم رغبة في تلاوته. لأنه كلما أنهى سورة أو جزءا كان أنشط له للدخول في التي تليها فيزداد في التحصيل من الحفظ لكتاب الله سبحانه ويسهل عليه الوقوف على معانيه والعمل به.

٣ ـ أن الحافظ إذا حفظ السورة اعتقد أنه أخذ من كتاب الله طائفة مستقلة بنفسها فيعظم عنده ما حفظه ، ومنه حديث أنس ـ رضي الله عنه ـ «كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جد فينا» إلى غير ذلك من الفوائد التي لم أذكرها خيفة من الإطالة.

ثانيا : عناصر السورة وما أثير حولها من الشبه :

المسألة الأولى : حول معنى كلمة سورة : زعم «بلاشير» أن معنى كلمة سورة لفظة غامضة نجدها في بعض الآيات المكية .

الجواب : «سورة» كلمة معروفة في العربية ولا غموض فيها كما زعم «بلاشير». والسورة : فيها لغتان بالهمز وبدونه وهو الأشهر ، وقيل : في معناها أقوال منها : أنها من السور وهو حائط المدينة المشتمل عليها كذلك.

إن كلمة «سورة» القرآنية ليست غامضة ، بل هي مشتقة من كلمة سور ، كأن كل مجموعة من الآيات محاطة بسور معنوي لا يسمح لنقطة أو لحرف من غيرها بالدخول فيها ، أو بشيء منها بالخروج منها ، وهذا كناية عن الحفظ والعصمة .

وهذا هو الاسم القرآني سورة مما امتاز به هذا القرآن العظيم على ما كان معهودا عند العرب.

نقل السيوطي عن الجاحظ قوله : [سمى الله كتابه اسما مخالفا لما سمى العرب كلامهم على الجمل والتفصيل :

سمى جملته قرآنا كما سموا ديوانا ، وبعضه سورة كقصيدة وبعضها آية كالبيت ، وآخرها فاصلة كقافية].وذهب الإمام السيوطي ـ رحمه‌الله ـ أن أسماء السور توقيفية .

أما عناوين السور : ذكر أصحاب الموسوعة البريطانية : [أن السورة تحتوي على العناصر الآتية : العنوان وهذا مشتق من كلمة واضحة جلية في السورة مثل البقرة والنحل والشعراء ، وحيث لا يدل العنوان على محتويات السورة].

الجواب : عبارة «العنوان» لا يدل دائما على محتويات السورة فهو بحاجة إلى بيان فبعض العلماء يعتبر أسماء السور توقيفية ، أي لا مجال فيها لاجتهاد ، ولا يمنع أن يكون هناك أسماء توقيفية استنبطها العلماء من موضوع السورة كتسمية سورة النحل بسورة النعم ، وذلك لما ذكر فيها من نعم الله الكثيرة على الناس. وتسمية سورة الحجرات بسورة الآداب ، وذلك لأنها اشتملت في معظمها على توجيهات وآداب لا بد منها للأفراد والجماعات ..

وإذا كانت عناوين هذه السور لا تدل لأول وهلة على محتويات هذه السور ، فمما لا ريب فيه أن عنوان السورة إنما يشير إلى قضية بارزة فيها تدور جميع موضوعات السورة حولها. فسورة براءة مثلا كانت في معظمها حديث عن المشركين والمنافقين ، الذين لا بد أن يتبرأ منهم المسلمون ، وذلك لأسباب كثيرة ذكرتها السورة ، وسورة نوح كانت كلها حديثا عنه مع قومه عليه السلام ، وسورة الجن كانت حديثا عن الجن ، وهكذا .. فكثير من السور عنوانها يدل على محتواها.

أما ما يجده بعض الناس من عناوين لبعض السور لا تدل على موضوعاتها فإن ذلك يحتاج منهم إلى إمعان نظر وإجالة فكر فيجدوا هناك نقطة أو قضية أرادت السورة إبرازها والتأكيد عليها لأنها من الأهمية بمكان ، لذا عنونت بها.

فسورة البقرة مثلا إشارة إلى قصة البقرة التي ذكرت لتخدم غرض السورة الرئيسي وهو قدرة الله سبحانه على إحياء الموتى فجاءت قصة إبراهيم عليه السلام وقصة عزيز لتخدما هذا الغرض الرئيسي نفسه.

كما أن السورة ذكرت موقف بني إسرائيل من هذه القصة ومن غيرها ، فذكرت أمورا لم تذكرها كتب بني إسرائيل ، وصورت نفسيتهم خير تصوير وموقفهم من أنبيائهم ؛ وذلك ليتعرف المسلمون على هؤلاء القوم وأخلاقهم فيعرفون كيف يتعاملون معهم.

وسورة آل عمران إذا أمعنا النظر فيها نجدها نتحدث عن آل عمران في أكثر أجزائها ، مريم ، والمسيح ـ عليهما السلام ـ. وسورة النساء كانت أبرز موضوعاتها النساء وحقوقهن أيا كانت هذه الحقوق وهكذا بقية هذا الصنف من السور...فاسم السورة ـ العنوان ـ ليس كما يقول المستشرقون لا يدل على محتويات السورة بل كل عنوان أشار إلى موضوعات السورة تمام الدلالة. أو أشار إلى جوانب بارزة في السورة يريد الله سبحانه إبرازها وإظهارها .

وقد كان «بلاشير» أكثر صراحة منهم حيث قال : [لقد ترسخت العادة منذ زمن بعيد أن يطلق على كل سورة عنوان يستخرج غالبا من أول آية فيها ، أو من قصة موسعة ، أو من عنصر راسخ أو من إشارة عرضية موجودة في السورة ، كما في السورة الثانية المسماة «البقرة» ويبدو أحيانا أن تسميات مختلفة قد أطلقت على السورة الواحدة تبعا للاهتمامات الدينية والأخلاقية المختلفة].

وهكذا نجد أن عنوان السورة لم يكن عبثا ، وإنما وضع واختير لغاية ولهدف مقصود مما يدل أن دوائر المعارف تتبنى الأقوال التي فيها إساءة للإسلام في بعض القضايا مع وجود أقوال أكثر اعتدالا.

المسألة الثالثة : الحروف المقطعة :

زعم «جرجس سال» أن هذه الحروف لغو لا فائدة فيها وهذا يخالف كون القرآن الكريم هدى وبيان. وقد غاب معناها حتى عن الراسخين في العلم فالخطاب بها كالخطاب بالمهمل.

وذكر بعضهم أن هذه الحروف مما وضعه كتبة محمد من اليهود.

وذكر أصحاب دائرة المعارف البريطانية أنها اختصار لكلمات أو أن لها أهمية سحرية. وكل كلامهم هذا ليستدلوا منه أنه ليس بكلام الله سبحانه .

الجواب : هذه الحروف قد نالت عند العلماء من التوضيح والشرح والعناية ما تستحق. فهي ليست كما زعم «سال» لغو لا معنى لها ، أو لها أهمية سحرية فحسب على رأي أصحاب الموسوعة البريطانية. بل إن العلماء وبعض السلف ـ رضوان الله عليهم ـ كابن عباس من رواية أبي ظبيان ، والشعبي ، والثوري ، وبعض علماء الخلف كأبي حيان ، والسيوطي ، والشوكاني ، عدوها من المتشابه الذي انفرد الله بعلمه ، وخفي على الخلق معرفته ، ومع هذا فقد أثبتوا لها معنى خفي على الخلق معرفته وأسره الله عنده ابتلاء واختبارا لإيمانهم ، وهذا في حد ذاته لون من ألوان البيان

والهدى ، ففيه يعرف المؤمنون من المنافقين لأن الإيمان بالغيب والمتشابه من القرآن من أركان الإيمان.

إلا أن «سال» ومن قال بقوله من المستشرقين يزعمون أن هذه الحروف لا معنى لها بلا دليل علمي. أو لفهمهم معنى المتشابه فهما خطأ.

وقد ذكر علماء المسلمين لهذه الحروف ما يقرب من واحد وعشرين قولا أشهرها :

١ ـ اسم الله الأعظم إلا أنا لا نعرف تأليفه منها وهو منسوب لابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ.

٢ ـ سر من أسرار هذا الكتاب ، والقرآن كتاب سماوي لا بد أن يكون له أسرار كأي كتاب سماوي.

٣ ـ اعتبرها ابن جني للفصل بين السور .

٤ ـ أسماء للسور القرآنية.

٥ ـ للتنبيه «كياء النداء» والتحدي وذلك لما أعرض المشركون عن سماع القرآن أنزل الله هذه الحروف ليستغربوها لعدم تعودهم عليها فيفتحوا أذانهم لها ولما بعدها من القرآن الكريم ، وأما جانب التحدي فيها فلأن هذه الحروف منها يتكون كلام العرب ومع هذا عجزوا أن يأتوا بمثل هذا القرآن. أو بشيء منه فثبت عجزهم وقامت عليهم الحجة.

وهذا قول المبرد وقطرب . وهذا القول هو أرجحها. والله تعالى أعلم.

المبحث الثالث : ترتيب سور القرآن الكريم :

زعم بعض المستشرقين أن القرآن الكريم لم يكن مرتبا وأنه كان مختلطا في عهد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد رتبه أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ لذا استحلوا لأنفسهم أن يجعلوا له ترتيبا خاصا يختلف عن ترتيب المصحف الحالي في كثير من السور ، معتمدين في ذلك على طريقة الأسلوب ومحتويات السورة. وكان من هؤلاء المستشرقين «غريم» و «ويل» و «بل» و «رودويل» و «بلاشير» و «نولديكه».

فمثلا «تيودور نولديكه» نشر كتابا بعنوان (تاريخ القرآن) سنة ١٨٦٠ م حيث نظم فيه السور إلى أربع مجموعات معتمدا في ذلك على ثلاث فترات زمنية في مكة وفترة رابعة في المدينة وقد أثنى على هذا التقسيم «بلاشير» كثيرا لأنه في نظره يجعل قراءة المصحف سهلة بل ممتعة ..

الجواب : لقد شغلت هذه القضية علماء المسلمين ابتداء من عصر الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ ولا عجب في ذلك أن يخصوها بجهد عظيم وبحث جاد لأنها تتصل اتصالا مباشرا بأقدس كتاب حرص المسلمون أن يدفعوا عنه كل شبهة .. وكان بحثهم مبنيا على أسس من المنطق العقلي والدليل النقلي ويمكن تلخيص منهجهم بعبارة نصها : (إن كنت ناقلا فالصحة ، أو مدعيا فالدليل) منهج

خاضع لقواعد علمية نقدية ما زال فخرا للمسلمين. فعناية المسلمين إذن بكتابهم كانت تعتمد على الروايات بعد نخالتها وتمييز غثها من سمينها فيذهب الزبد جفاء ، ويطرح الضعيف والموضوع منها ، وتؤخذ الرواية الصحيحة التي تثبت بعد درس وتمحيص.

أما المستشرقون فكان جهدهم معتمدا على جهود العلماء السابقين ، ولكن تخليطهم ناتج من عدم قدرتهم على التمييز بين الروايات فأخذوا بكثير من الروايات الضعيفة والموضوعة. كما ترجع كثير من أخطائهم لجهلهم باللغة العربية ولأن عملهم نابع من أهداف نفسية ودينية خاصة بهم ، والمستشرقون يسوقون الاحتمالات العقلية مساق الحقائق المسلمة ، وهم يجمعون الآراء والظنون والأوهام والتصورات ويعتبرونها أصلا يصلح للفحص والدراسة والاستنتاج منه لقضايا من أخطر القضايا في الإسلام .

فهذه النقاط تعتبر هي أهم أسباب أخطاء المستشرقين في كثير من القضايا الإسلامية عامة والقضايا القرآنية على وجه الخصوص.

م/٩ : الأسلوب القرآني وشبه المستشرقين حوله

الشبهة الأولى : أسلوب القرآن المكي والمدني

الشبهة الثانية : طول الآيات وقصرها وعددها وشبههم

الشبهة الثالثة : الفاصلة القرآنية

الشبهة الأولى : أسلوب القرآن المكي والمدني

قالت الموسوعة البريطانية : [.. إن أسلوب الوحي المحمدي جاء نثرا مقفى ، أو ما يسميه العرب بالسجع ، وقد استعمل هذا الأسلوب سابقا من قبل الكهنة ، ومن قبل المنجمين.

فالسور الأولى تتصف آياتها بالقصر وبقوتها الشعرية وبتعبيرها الحيوي. أما السور الأخيرة فجاءت آياتها طويلة ، مفصلة ومعقدة نثرية في مظهرها ولغتها ، ومما تسبب عنها اختلاف في ترقيم الآيات].

الجواب : هذه العبارات تناولت عدة قضايا :

١ ـ الأسلوب المكي والمدني.

٢ ـ صلة هذا الأسلوب بأسلوب الكهان والمنجمين.

٣ ـ الآيات طولا وقصرا.

أولا : الأسلوب المكي والمدني :

التفرقة بين الأسلوب المكي والمدني أمر كانت له أبعاده ومقدماته ونتائجه ، وهي قضية طالما تعرض لها رجال التبشير والاستشراق على السواء ورددها تلامذتهم كثيرا.

إن الغاية من تقسيم القرآن إلى أسلوبين ـ عند المستشرقين والمبشرين ـ إثبات أن هذا القرآن كان خاضعا للبيئات المختلفة فهو في مكة كان ذا أسلوب شعري يتفق مع لغة القوم وثقافتهم العربية المحدودة ، ولكنه في البيئة المدنية كان متأثرا بأهل الكتاب الذين كانوا هناك من اليهود والذين كان لهم من الثقافة ما لم يكن لهؤلاء ، وعلى هذا فالقرآن كان يخضع لأمزجة مختلفة ، وثقافات متغايرة ، فليس نسقا واحدا ، فآياته في مكة قصيرة ذات أسلوب وإيحاء قوي ، ولكنها في المدينة كانت طويلة ذات أسلوب معقد. وهذه فرية من جملة أكاذيبهم التي لا تقوم على دليل .

إن القرآن المكي جاء ليعالج موضوع العقيدة بشكل رئيسي ، وما يتصل بها من أخلاق فاضلة لذا سخر لذلك كل شيء حتى القصص القرآني. أما القرآن المدني فكان تركيزه على إيجاد نظام شامل لكل متطلبات الحياة. واختلاف الموضوع قد ينتج عنه تنوع في الأسلوب من حيثية معينة ولكنه يحافظ على الجودة وحسن الصياغة.

فطبيعة الموضوع نفسه تقتضي شيئا من التغير في العرض فالأسلوب فيهما إذا يمتاز بجودة النظم ، وروعة الأسلوب ، وعلو الشأن وبديع الصنع ، والتناهي.

الشبهة الثانية : زعم بعضهم أن القرآن المكي تأثر بالأوساط التي نزل فيها من حيث التأدب في اللفظ وعدمه. فالمكي تجد فيه الألفاظ النابية ، أما المدني فتجد فيه رفعة في العبارة وبعدا عن هذه الألفاظ . إيحاء منهم بالتأثر بالأدب اليهودي في المدينة ـ على حد زعمهم ـ.

الجواب : هذه الأوصاف التي يطلقها المستشرقون على القرآن الكريم عارية عن الصحة. أما إن قصدوا بها الوعد والوعيد والتقريع والتهديد للكفار في بعض الآيات ، أو صفحا وعفوا في غيرها فهذا النوع من الآيات لا يسمى سبابا ولا شتما بل هو لون من ألوان الأسلوب العربي. والقرآن الكريم نزل بلغة العرب وعلى أساليبهم وأفانين الكلام عندهم.

وهذا النوع من الأسلوب ليس في السور المكية فقط ـ على حد زعمهم ـ بل هو موجود كذلك في السور المدنية قال تعالى في سورة البقرة : (إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ ما أَنْزَلَ اللهُ مِنَ الْكِتابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُولئِكَ ما يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ).

أما الأسلوب الرفيع البعيد عن البذاءة ـ على حد تعبيرهم ـ ويقصدون به العفو والصفح وأنه غير موجود في السور المكية فهي مجرد دعوى وآيات العفو والصفح كما هي في السور المدنية فهي في السور المكية ومثال ذلك ما جاء في سورة الأعراف (خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجاهِلِينَ) وقوله تعالى في سورة فصلت : (وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) الآية.

فمن هنا يظهر أن مسلك القرآن الكريم في كل هذه الألوان من الأساليب من وعد ووعيد ، وترغيب وترهيب ، وعفو وصفح وتهديد ، راجع لمقتضى المقام وهذا هو الأسلوب الحكيم.

الشبهة الثانية : طول الآيات وقصرها وعددها وشبههم :

الشبهة الأولى : ذكرت دائرة المعارف البريطانية في هذا الشأن (أن السور الأولى تتصف آياتها بالقصر ، وبقوتها الشعرية ، وبتعبيرها الحيوي ، أما السور الأخيرة فجاءت آياتها طويلة مفصلة ومعقدة نثرية في مظهرها ولغتها ، بحيث إنه أصبح من الصعب التمييز أين تنتهي الآية ، مما تسبب عنه اختلاف في ترقيم الآيات) .

الجواب : فقضية قصر الآيات وطولها أمر توقيفي لا اجتهادي عينه المصطفي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكان مراعيا فيه لمقتضى حال المخاطبين وليس لتأثره بالبيئة المكية أو المدنية. وكان مراعيا كذلك أفانين الكلام عند العرب في كلا البيئتين ، حيث كان عندهم أسلوب الإطناب والإيجاز ، فجاءت الآيات على الأسلوبين سواء في مكة أو في المدينة ، وأهل مكة لم يكونوا شعراء فقط بل كانوا كذلك أدباء بلغاء لا يقلون في الإبداع عن كونهم شعراء أفذاذ ، لأن الكلام بضاعتهم في كل نواحيه ، وقد اشتهر منهم في مكة أدباء أصحاب نثر بديع كما اشتهر فيهم شعراء مبدعون.

وهناك أمر هام وهو أن السور المكية لم تكن كلها ذات آيات قصيرة ، وكذلك لم تكن المدنية كلها ذات آيات طويلة كما يظن المستشرقون. فمن السور المكية من آياتها طوال وهي كثيرة العدد أكثر من بعض السور المدنية كما هو الحال في سورة الأنعام ، وغيرها ، ومن السور المدنية قصيرة الآيات ، قليلة العدد كسورتي النصر والإنسان ، وغير ذلك كثير.

الشبهة الثالثة : الفاصلة القرآنية

زعم المستشرقون كما في دائرة المعارف البريطانية أن القرآن الكريم ألف بطريقة عشوائية والذي يدل على ذلك ويؤكد صحته ختم آياته بفواصل وضعت لغير حكمة ولا فائدة وإنما وضعت لتتميم السجع والقافية للآيات .

الجواب : الفواصل : حروف متشاكلة في المقاطع توجب حسن إفهام المعاني والفواصل بلاغة ، والأسجاع عيب. وذلك أن الفواصل تابعة للمعاني ، وأما الأسجاع فالمعاني تابعة لها وهو قلب توجبه الحكمة في الدلالة .وفواصل القرآن كلها بلاغة وحكمة لأنها طريق إلى إفهام المعاني التي يحتاج إليها في أحسن صورة يدل بها عليها. والفواصل على وجهين : أحدهما على الحروف المتجانسة كقوله تعالى : (طه ما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقى إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشى).

والآخر على الحروف المتقاربة فكالميم من النون كقوله تعالى : (الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ. مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ) وإنما حسن في الفواصل الحروف المتقاربة. لأنه يكتنف الكلام من البيان ما يدل على المراد في تمييز الفواصل والمقاطع ، لما فيه من البلاغة وحسن العبارة.

وأما القوافي فلا تحتمل ذلك لأنها ليست في الطبقة العليا من البلاغة. وإنما حسن الكلام فيها إقامة الوزن ومجانسة القوافي فلو بطل أحد الشيئين خرج عن ذلك المنهاج ، وبطل ذلك الحسن الذي في الأسماع ، ونقصت رتبته في الأفهام.

والفائدة في الفواصل دلالتها على المقاطع ، وتحسينها الكلام بالتشاكل وإبداؤها في الآي بالنظائر .

م/١٠ : شبهات المستشرقين حول إعجاز القرآن الكريم

لما كان إعجاز القرآن الكريم أول دليل على مصدر القرآن الإلهي وبه ثبوت صدق رسالة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لذا وجه المستشرقون له معاول هدمهم وتشكيكاتهم بالطعن في ربانية مصدره تارة وفي ترابطه وتناسقه وجمال أسلوبه وبلاغته وفصاحته تارة أخرى ، مرددين ما ردده المشركون الأوائل ، ومضيفين لافتراءات أولئك ما أسعفهم به ذكاؤهم وعلمهم ، لذا تعددت أقوالهم وافتراءاتهم حول هذه القضية القرآنية الخطيرة.

وقد اختلف المستشرقون كذلك في القدر المعجز من القرآن الكريم واعتبر «سال» أن من يقول بإعجاز الكلمة والكلمتين منه نوع من الشطط ، وزعم أنه يترتب على هذا اعتبار أن ما جاء به على لسان آخرين هو معجز كما أنه اعتبر أن الإعجاز في سبك معانيه لا في لفظه .

فبالنسبة للمقدار المعجز من القرآن الكريم قد سبق المستشرقين في هذا الاختلاف علماء مسلمون وكانوا على أقوال عدة :

١ ـ الجمهور اعتبر أن الإعجاز يتحقق بالسورة القرآنية طويلة كانت أو قصيرة. وقد اعتبروا أن هذا القدر هو الذي تؤيده الأدلة القرآنية ، وظاهر مراحل التحدي.

٢ ـ بعض المعتزلة قال : إن الإعجاز يتعلق بجميع القرآن الكريم لا ببعضه. وهذا يعارض آيات التحدي بعشر سور أو بسورة واحدة.

٣ ـ ذهبت طائفة أن الإعجاز يتحقق بالقليل والكثير من القرآن الكريم دون التقيد بسورة ، مستدلين بظاهر قوله تعالى : (فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ) مفسرين الحديث أنه أي كلام يفيد معنى سواء كان آية أو أكثر أو أقل .

فمن هنا يظهر لنا جليا أن «سال» قد تبنى رأيا مرجوحا وبنى عليه نتائج يريد تحقيقها ، فعبارته [أنه يترتب عليه أن ما ورد فيه من حكاية قول الآخرين معجز ضاهوا به فصاحة ما يزعم أنه قرآن] يريد «سال» أن يؤكد أن في القرآن صنعة بشرية معتمدا على ما حكي على لسان بعض الناس أو المخلوقات في القرآن إخبارا من الله سبحانه وتعالى بما كان يحصل في هذه المواقف بين الرسل وأقوامهم أو غير ذلك من آيات فيما بعد. حيث يظهر لنا أن كل ما بين دفتي المصحف هو كلام رب العالمين. سواء أكان على لسان شخص أم سواه.

أما اعتبار «سال» أن الإعجاز في سبك المعاني لا في الألفاظ ٤. فهذا الرأي غير دقيق لأن كل شيء في القرآن معجز فهو معجز في بلاغته وفصاحته وفي جزالة ألفاظه ، وحسن معانيه وفي نظمه البديع ، باختياره الكلمة ووضعها في المكان الذي تقوم به بوظيفتها على أحسن وجه وأتمه.

لذا فإعجاز القرآن الكريم بلفظ القرآن ومعناه الذي منهما تظهر الصور البلاغية والبيانية البديعة التي تفرد بها القرآن الكريم. ولا يتصور أن تعرف للفظ موضعا من غير أن تعرف معناه وتتوخى ترتيب المعنى قبل ترتيب الألفاظ. وإذا كنا ننكر على غير ذوي الاختصاص من أهل اللغة أن يخوضوا فيما لم يعرفوا من أسرار القرآن وبلاغته ، فلنحن أشد إنكارا على أولئك المستشرقين الذين عدموا الذوق العربي والحس اللغوي ، وإشراق الروح وصفاء النفس أن يقحموا أنفسهم في ميدان ليسوا من فرسانه وأهله ليخرجوا على الناس بآراء في قمة الغرابة في إعجاز القرآن الكريم وفي الأسلوب القرآني البديع .

والآن سأعرض لمجمل شبههم التي ارتكزوا عليها في إبطال قضية إعجاز القرآن الكريم من خلال ما ذكر «سال» في هذه القضية في كتابه (أسرار عن القرآن).

الشبهة الأولى :

زعموا أن القرآن فيه كلام متعارض مما يدل على أنه ليس من عند الله ـ سبحانه ـ في شيء لأن الله لا يعارض نفسه ، ولا ينقض بعض كلامه بعضا ، ومصنف القرآن نفسه يقول عن كتابه أنه لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا ونحن نجد فيه اختلافا كثيرا مما يدل أنه ليس من عند الله . واستدل «سال» لذلك ببعض الأمثلة سأرد عليها بعد قليل ـ إن شاء الله-

الجواب :جاء القرآن الكريم معجزة لنبينا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليشهد على صدقه وصحة نبوته لذا اشتمل القرآن الكريم على ثلاثة أمور دالة على صدق محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

١ ـ فصاحته.

٢ ـ اشتماله على الإخبار عن الغيب.

٣ ـ سلامته عن الاختلاف .

قال تعالى : (أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً).

فمن تدبر القرآن الكريم وجده سليما من الاختلاف ، لا منافاة ولا مناقضة بين شيء من آياته ومعانيه البتة. مع أنه كتاب كبير مشتمل على كثير من المعاني على نفس الرتبة من الفصاحة لا فرق بين مكيه ومدنيه ، ولا آيات عقائده أو آيات تشريعاته .. إلخ.

فلما كان هذا القرآن نسجا واحدا في فصاحته ، وبلاغته ، ونظمه ، وكان كله بالغا حد الإعجاز علم أنه ليس إلا من عند قادر على ما لا يقدر عليه غيره ، عالم بما لا يعلمه أحد سواه ، وهو الله سبحانه وتعالى ، وعدم وقوف بعض الناس على هذا الجانب في كتاب الله ـ سبحانه ـ عائد لعجزهم وضعفهم وقصور علمهم لا لضعف في كتاب الله ، ولا تدافع وتناقض في آياته.

وعلى رأس هؤلاء الذين أعجزتهم فصاحته ، وغلبت أفهامهم بلاغته ، وأبهرهم حسن نظمه ومعانيه ، المبشرون والمستشرقون ، من أجل ذلك نسبوا له التناقض والتدافع والتعارض بين آياته ليدفعوا جانب الإعجاز فيه فبذلوا وسعهم في الاستدلال على زعمهم بأدلة لم يفهموا معانيها ولم يقدروا على الجمع بين آياتها وسأبين وجه الصواب فيها.

الشبهة الأولى :

قال الله تعالى في سورة النحل عن القرآن : (لِسانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ). والمبين ما لا يحتاج إلى تأويل. فنقض ذلك بقوله في سورة آل عمران أنه فيه آيات متشابهات وأنه لا يعلم تأويله إلا الله .

الجواب : الآيتان ليس بينهما تناقض فالآيات قسمان :قسم محكم : وهو البين والواضح الذي لا يحتمل تأويلا وهذا يؤيده آية النحل السابقة.

وقسم متشابه : وهو الذي يحتمل أكثر من وجه وهذا الذي يخفى على كثير من الناس ولا يعلم تأويله إلا العالمون. ويؤيده آية آل عمران قال تعالى : (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتابَ مِنْهُ آياتٌ مُحْكَماتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتابِ وَأُخَرُ مُتَشابِهاتٌ ..) فالحكمة اقتضت أن تكون آيات الكتاب قسمين ، قسم يفهمه عامة الناس ، وقسم لا يفهمه إلا العالمون.

والحكمة في تنزيل المتشابه من الآيات لإظهار فضل العلم والعلماء ومن أجل التنافس في تعلم كتاب الله ـ عزوجل ـ وابتلاء واختبارا لإيمان الناس (فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ ما تَشابَهَ مِنْهُ ابْتِغاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغاءَ تَأْوِيلِهِ) وأما العالمون المؤمنون به (يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنا).

كما أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ بين أن في كتابه آيات يحتاج الناس لمن يبينها لهم كبيان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لصحابته قال تعالى : (وَأَنْزَلْنا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ ما نُزِّلَ إِلَيْهِمْ).

وقد وضح ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ هذا الأمر بقوله : [التفسير على أربعة أوجه : وجه تعرفه العرب من كلامها ، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته وتفسير يعلمه العلماء ، وتفسير لا يعلمه إلا الله تعالى].

وكان يشكل بعض معاني القرآن الكريم على بعض الصحابة فيلتجئون لبعض علماء الصحابة لتوضيح ما غمض وأشكل عليهم فقد روى البخاري بسنده إلى سعيد أن رجلا قال لابن عباس إني أجد في القرآن أشياء تختلف عليّ قال : (فَلا أَنْسابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَساءَلُونَ) (وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ) ... فقال ابن عباس : فلا أنساب بينهم في النفخة الأولى ، ثم ينفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ، فلا أنساب بينهم عند ذلك ولا يتساءلون ، ثم في النفخة الآخرة أقبل بعضهم على بعض يتساءلون .. فلا يختلف عليك القرآن فإن كلا من عند الله .فمن هنا يظهر لنا بطلان شبهة «سال» بما استدل به من تناقض بين هاتين الآيتين.

الشبهة الثانية : قال في سورة يونس خطابا لفرعون وقد اتبع بني إسرائيل بغيا حتى أدركه الغرق (فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً)

ويترتب على هذا الكلام أن الله نجى فرعون من الغرق فنقض ذلك بقوله في سورة الإسراء (فَأَغْرَقْناهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعاً) وبقوله في سورة القصص (فَأَخَذْناهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْناهُمْ فِي الْيَمِ) فالآية تدل على نجاة فرعون من الغرق بعد ما أشرف عليه حتى يكون آية لمن خلفه من المصريين وهذا هو المعنى الذي أراده القرآن وإن كره المفسرون الذين فسروه أنه ألقى بدنه مجردا من الروح على نجوة ليكون آية لبني إسرائيل ..].

الجواب :هذه الآيات ليس بينها شيء من التناقض فآيتا سورة الإسراء والقصص صريحتان في موت فرعون غرقا ، أما الآية الثالثة التي وقع فيها اللّبس بالنسبة ل «سال» فهي موافقة لما في الآيتين من المعنى فهذه الآية جاءت لتصور ما كان في نفوس بني إسرائيل لفرعون من مكانة ومهابة حتى إنهم تصوروا أنه لن يغرق لأنه رب ـ على حد زعمه ـ ولم يصدقوا غرقه حتى شاهدوه بأعينهم مقذوفا من البحر على مرتفع من الساحل فكان في ذلك أبلغ العبرة لنصرة الله لهم ، وتأييده للمؤمنين

فالآية إذن لا توافق فهم «سال» وتعسفه في تفسير النص فيكون معنى (لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ) أي علامة لمن وراءك من بني إسرائيل لأنه طرح على ممرهم من ناحية البحر.